ثروت أباظة
أوقات خادعة
رواية
مكتبة على بن صالح الرقمية

ثروت أباظة

أوقات خادعة

روايــة

1975

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الفصل الأول

حين ركبت السيارة لم أكن أتصور أنني أبدأ حياة جديدة لم تخطر لي على بال. كل ما أذكره أنني كنتُ فرحًا وأنا أركب السيارة لتذهب بي إلى بيت عمتي، فأنا أحب عمتي سعدية، وأحب ابنها وجدي. كان حب عمتي لي يُترجَم دائمًا إلى شيءٍ من المال تنفحني به. وأنا أذكر أنني منذ تلك السن الباكرة أعتبر المال شيئًا هامًّا غاية الأهمية، فمعنى وجود القروش في جيبي أنني أحمل في جيبي كل شيءٍ تصبو إليه نفسي. وقد كنتُ منذ ذلك الحين وحتى الآن أحب أن أحمل في جيبي كل ما تصبو إليه نفسي، وكنتُ لا أشعر بالسرور حين أجد وجدي ينفق من المال ما لا أستطيع أنا أن أنفق. ولم يكن يعنيني أنه ابن وحيد لأب غني، وإنما كان يعنيني أن المال دائمًا يجري بين يديه، ويعنيني أن الخدم في بيتهم لا أكاد أحصيتهم عددًا، وأن سيارتهم جديدة دائمًا في حين لا يملك أبي أية سيارة، وهو لا يكتفي بذلك، وإنما هو أيضًا لا يكف من شكوى قلة المال وكثرة الأعباء، وكأنما أنا الذي أتيت به إلى الدنيا، وليس هو الذي أتى بي إليها.

فذهابي إلى بيت عمتي سيُعفيني — ولو إلى حين — من رؤية فقرنا، والسماع إلى الشكوى من هذا الفقر، وكأنما لا يكفيني الفقر في ذاته، وكأنما لا بد لي أن أشقى بهذا الفقر بكل حاسةٍ من حواسي الخمس.

لن أحتاج إلى بذل الجهود المضنية لأحتال على أبي حينًا، وعلى أمي أحيانًا؛ لأصيب شيئًا ضئيلًا من المال، فلا عجب إذن أن أفرح.

ولكن ما هذا الحزن المتجهم في وجوه مَن حولي، ولكن ما شأني أنا بمن حولي، المهم هو ما أشعر به أنا، وهو دائمًا شعور مستقل عن الآخرين. إن نفسي هي دنياي جميعًا لا صلة لها بدنيا الآخرين. أنا لا أنسى هذا اليوم، أنا فرح والآخرون في حزنٍ وتَجَهُّم، ولكن كأنما هؤلاء الآخرون يحيَون في دنيا أخرَى لا صلة لي بها.

كان السائق صالح يقود السيارة، وكانت معه الخادمة وصفية التي عملت عندنا منذ قريب لتساعد دادة تفيدة التي لا تكف عن قولها لي أنها أول من لَقَفَني من دنيا الغيب، وأنني على ذراعيها عرفت أول مكان لي في دنيا الناس بعد أن كنتُ مشروع طفل في رحمة الأقدار.

وقد ظلت دادة تفيدة وحدها في البيت حتى مرضت أمي، وأصبحت دادة عاجزة أن تقوم بطلبات أمي وطلبات أبي، وترعى شأني في وقت معًا؛ فجاءت وصفية لتحمل عنها بعض العبء.

صالح صامت على غير عادته، ووصفية تُشيح بوجهها عني إلى الطريق، وكأنما تراه لأول مرة. وكلما ناديتها التفتتْ لي وفي عينيها بداية دمعة أو نهاية دمعة، لم تكن هذه الدموع تعنيني فأنا أكلمهما وكأنهما في حالتيهما العادية، فقد كنتُ أنا سعيدًا. وما دمت سعيدًا فأنا أحب أن أتكلم، بل العجيب في أمري أنني أتكلم أيضًا وأنا غير سعيد. لماذا لا يتكلم الناس دائمًا؟! ولماذا يملون الاستماع إليَّ إذا استمر حديثي فترة طويلة؟! ولكن ما شأني أنا ملُّوا أو أقبلوا، فأنا أريد أن أتحدث، ولو كنتُ إلى غير سامع أتحدث.

– أُسطى صالح، ألا تنوي أن تعلمنيَ السواقة اليوم.

– ليس اليوم يا أمين بك.

– لماذا ليس اليوم؟ ماذا جرى اليوم؟ هل هناك شيء؟

وتترك وصفية دموعها ونظرها إلى الطريق، وتسارع بالإجابة: لا، أبدًا. وماذا يمكن أن يحدث؟

– فلماذا تبكين؟

– أنا؟! أبدًا، أنا لا أبكي.

– كذا؟! ربما، ولماذا لا تعلمني أنت السواقة يا أُسطى صالح؟

– عمك البيه يريدني أن أذهب إليه بسرعة.

– طيب، تعلمني بكرة.

– إن شاء الله.

وأمضي في الحديث، وتمضي بنا السيارة حتى غايتها. ما لي أرى بيت عمتي فخمًا دائمًا؟! كلما أقبلت عليه أحس كأنما أقبِلُ عليه لأول مرة، كل شيء فيه أنيق يروع العين ويأخذ النفس.

أنا لا أدري لماذا أكتب هذا الكلام، هذا الحديث جميعًا، لماذا أسوقه؟ ولمن أسوقه؟ أنا لست أديبًا ولا علم لي بفنون الكلام، وقد تعود الناس إذا قرءوا أن يقرءوا أدبًا، وقد سمعت بعض الأدباء يقولون: إن الأدب شكل ومضمون. وأنَّى لي أعرف ما معنى المضمون هذا؟ إن كان مجرد حكاية وتجارِب فأنا عندي هذا المضمون الذي يتحدثون عنه، ولكنني لا أعرف شيئًا عن مسألة الشكل هذه. ففيمَ إذن أكتب؟ ومن تراه قارئ ما أكتب؟ أنا أحب الحديث وألقي به على من معي، وسواء عندي أصغى أو لم، ولكن الأمر هنا مختلف، فأنا شخصيًّا كإنسان لست راديو يمكن أن يقفلني أحد بإدارة زر. وقد يستحي السامع مني — وغالبًا ما يفعل — ويضطر أن يبذل سمعه على كُره منه أو غير كره، أو قد يتظاهر أنه يسمعني ويسرح فيما شاء هو، ولكن كل هذا لا يهم، المهم أن أقول وأن أجد أذنًا بشرية، ولو غير مُصغية. أما في الكتاب فالأمر للأسف مختلف كل الاختلاف؛ فإن القارئ يستطيع بكل بساطة أن يطوي ما يقرأ، ولا أقول أنا ولا يسمع هو. ولكن من يدري لعل هذا الكتاب يجد من يصوغه، ويحتال بصياغته على الناس فيقرءونه، وعلى كل حال ماذا يهمني أنا؟ أنا سأكتب ولْيقرأ من يشاء، وليمتنع عن القراءة من يشاء. أحب من بيت عمتي سطح البيت، ملعب واسع ألعب فيه الكرة مع وجدي، لا يضايق لعبنا أحد أو سيارة. لقد كان سطح البيت ملعبًا خاصًّا بنا، ولكننا مع ذلك نتوق أحيانًا إلى الشارع، فننزل إليه ونشارك الأطفال الآخرين لعبهم.

كنتُ أحب أن يكون لنا ملعب خاص، وكنت في نفسي أشعر — بشبه غصة في نفسي — أن هذا البيت ملك لزوج عمتي وليس ملكًا لأبي، ومع ذلك كنتُ أحب عمي البيه كما أحب عمتي، وفي نفس الوقت كنتُ أشعر أحيانًا بكرهٍ شديدٍ لهما جميعًا،

ولأيهما أيضًا أنا أعرف مبعث الحب، أما مبعث الكره فلم أكن أعرفه، وحتى الآن لا أدري إن كنتُ تبينتُه أم لم أتبين أمره في نفسي. وعلى أية حال، هل الحب الذي كنتُ أكنه لعمتي ولزوج عمتي ينبعث من عاطفةٍ صادقةٍ غير مدخولة ولا معتمدة على منافع، أم هو حب يشتريانه مني بما يقدمان إليَّ من مال؟ هذا أيضًا لم أكن أدريه وما زلت أجهله.

استقبلني وجدي.

– شفت كُرتي الجديدة؟

– هايلة.

– هيا نلعب بها.

وصعِدنا إلى السطح، وأذكر الآن أن البيت كان هادئًا صامتًا على غير ما عوَّدني، وأذكر أيضًا أنني لم أحاول أن أجد سببًا لهذا الصمت، فقد كانت الكرة الجديدة مُغرية باللعب، وكان السطح في انتظارنا. وبينما نحن منهمكان في اللعب تذكرتُ فجأة أنني مُفلِس تمامًا.

– أين عمتي؟

– لا أعرف.

– ومتى ترجع؟

– الظاهر أنها ستتغدى خارج البيت.

– ياه.

– عايز منها حاجة.

– لا أبدًا، اشتقت إليها فقط.

* * *

عادت عمتي سعدية متأخرةً، ولكنني انتظرتها وأنا أغالب النوم، فلا أدري لماذا صَمَّمتُ في تلك الليلة ألا أبيت خاويَ الوفاض؟ شيء جديد بدا من معاملتها لي، لقد كانت تحنو عليَّ دائمًا، ولكنها في هذه الليلة كانت أكثر حنانًا. اهتممتُ بهذا الحنان، ولم أحاول أن أجد السبب الذي يقف وراءه، الحنان في ذاته يكفي.

كانت في كل مرةٍ تعطيني خمسين قرشًا، فإن بالغتْ فجنيه، إنها اليوم تنفحني خمسة جنيهات، ليذهب النوم إلى الجحيم. هذا نوع من الورق لم يعرفه رسولًا بالجنيهات الخمسة من أمي إلى أبي، أو من أبي إلى أمي. أما أن تكون الجنيهات ملكًا خالصًا لي، وأضعها في جيبي، فهذا لا شك جديد، لماذا؟ لا يهم. المهم أن الجنيهات خمسة، وأنها جميعًا في جيبي.

– أمين، ما رأيك أن تبقى معنا هنا؟

– قوي.

– صحيح.

– طبعًا.

– ستكون مثل وجدي، أنت عارف.

– عارف.

– إذن هيا لِتنام، وغدًا ننزل نشتري لك حاجات كثيرة.

– تنزلين معي.

ولا أدري لماذا تبادرتْ دموعها وهي تقول: أنا سأكون مشغولة، صالح سينزل معك.

– طيب، أنا سأكون جاهزًا مع الشمس.

ولم أهتم بالنشيج الذي ودَّعني وأنا أقفل الباب من خلفي.

الفصل الثاني

لم تكن ساعاتٌ كثيرة قد مضت من صباح اليوم التالي حتى عرفت أن أمي قد ماتت، وطبعًا أدركت سر الدموع التي كانت تحيط بي. هذا لا يهم، المهم أن أحصل لنفسي على دموع مثلها، من أين؟ أنا لم أبك في حياتي هذا النوع من البكاء أبدًا. إن هذه الدموع لا تعرفها عيناي، يبدو أنها لم تكن قد وُجدتْ في كِياني، ولست واثقًا أنها تكوَّنتْ حتى الآن. أنا أعرف الآن أن هذا النوع من الدموع لا ينبُع في النفس إلا مع السن المتقدمة بعض الشيء، ومع ذلك فأنا لست واثقًا أنها موجودة الآن. لعلي لم أبلغ سن الحزن بعد.

لا، إني على كل حال كنتُ في حاجةٍ إلى دموع، أيُّ نوعٍ من الدموع، المهم أن تُساقط عيناي نقطتين من الماء، ولكن من أين؟

أخفيت عيني بظاهر يدي، ورحت أدعك العينين مني لعل الاحمرار يصيبهما إن لم يكن إلى الدمع من سبيل، ثم جريت. استعنت بماء الصُّنبور، فأمدَّني بما يكون من الدموع، وقصدت إلى عمتي.

أكاد أعرف الوجه الذي طالعها مني، وجه طفل فيه عينان حمراوان منسجمتان تمامًا مع الدموع الهاطلة تملأ وجهي جميعًا.

– الله، ماذا جرى يا أمين؟

– ماما.

قلتها وشهقت، فقد كنتُ واثقًا أنه لا بد من هذه الشهقة، وتأكدت من هذا الرأي لما رأيت الدموع تنساب من عيني عمتي وهي تقول: وأنا أقول إنك رجل.

ولم أجد شيئًا أقوله.

– ماما.

– تعالَ خذ ... خذ هذه.

يبدو أنني وُفِّقْتُ في اختيار الفعل واللفظ معًا. وعدتُ أقول: ماما.

– ألا يرضيك أن أكون أنا ماما.

ووضعت الجنيهات الخمسة في جيبي، وأنا أشهق مرة أخرى: ماما.

– هيا اغسل وشك وتعال. أين وجدي؟

وفي شهقة أخرى قلت: في حجرته.

– ماذا ستفعلان اليوم؟

– لا شيء.

– كيف لا شيء؟ هناك مفاجأة لك.

وفي خفقة الفرحة بلقاء المجهول السعيد قلت: ماما.

ولعلني كنتُ أريد أن أجعل المفاجأة أعظم مما هي.

– وبعد ذلك، عمك البيه سيشتري لك هدية عظيمة ستفرح بها جدًّا.

ولم أستطع أن أحافظ على مظهري، ووجدت نفسي أنسى الموقف الدرامي الذي صنعتُه لأقول في تشوقٍ فرحان: صحيح، ما هي؟

– ستعرف، فقط اغسل وشك وغير ملابسك، بابا سيأتي الآن.

لا تجعله يحس أنك لست رجلًا.

– بابا سيأتي.

– نعم.

– لماذا؟

– ليراك.

– هل سيأخذني؟

– هل تريد أن تذهب معه؟

– لا، أريد أن أبقى معك.

– ألم نتفق على هذا؟

– نعم.

– إنه سيأتي ليراك فقط.

* * *

جاء أبي ومعه حقائب فيها كل ملابسي. وما كانت ملابسي لتملأ أكثر من حقيبة واحدة، ولكن يبدو أنه خجل أن يأتي بها جميعًا في حقيبة واحدة، ومع الحقائب جاءت وصفية لتبقى معي في بيت عمتي.

وسألني أبي: أينقصك شيء؟

ولم أستطع أن أقول: ينقصني كل شيء.

خجلت أن أقولها، وقلت الجملة التي ينتظرها: لا.

ولم تبق عندي بقية من ماء لأسفحها في شكل دموع، وإنما تظاهرتُ بما يشبه الحزن، ولما استعصى عليَّ ارتجال الدمع أطرقت مُخفيًا وجهي جميعًا.

– كن رجلًا، واسمع كلام عمتك ولا تضايقها، أنت تعرف كم تحبك، وكم يحبك عمك البيه.

– نعم أعرف.

قلتها وأنا مطرق وفي نغمة أتقنتُ إخراجها. وقالت عمتي: سليم، لا شأن لك بأَمين، ولا تتدخل بيننا.

– أمركِ يا ستي، خذ يا أمين.

جنيه، أخذتُه طبعًا. وداخلني شعور أن أبي وعمتي يريدان مني أن أنصرف، فكرتُ أن أتغابى وأبقى، ولكن لم أجد لذلك داعيًا، وخرجتُ وأحسستُ وأنا أمسك بضلفة الباب أنهما سيتكلمان في شأن من شئوني، فلم أُقفل الباب، وجعلته مردودًا.

أرادت عمتي أن تحوِّلني إلى مدرسة وجدي الأجنبية؛ لأتعلم لغة، ولكن أبي أصر على أن أبقى بمدرستي التي تعوَّدتُ عليها، وانتهى إلى ذلك رأيهما، وفرحتُ أنني لن أغير مدرستي. فإن كان لا بد من مدرسة فلتكن التي أعرفها.

* * *

حين بدأت الدراسة تغير الوضع تمامًا بالنسبة لي، لقد بدأتُ أرى من عمتي وجهًا آخر غير وجه التدليل وإغداق المال، أما وجدي فقد انقلب من لاعب عِربيد إلى تلميذ يلح في المذاكرة إلحاحًا في انتظامٍ دقيق وإصرار.

كانت مذاكرة وجدي هذه هي العقبة التي تقف في وجهي، فقد كنتُ أستطيع أن أخالف أوامر عمتي وألعب، ولكن مع مَن ألعب؟ وقد تَكَشَّفَ لي وجدي عن تلميذ غبي لا يترك المذاكرة يومًا.

حاولت أن أتغلب على هذه العقبة بالنزول إلى الشارع واللعب مع الآخرين، فنشأت أمامي عقبة تمثَّلتْ في تفيدة التي تصر أن تبلغ عمتي بإهمالي المذاكرةَ، ونزولي إلى الشارع دائمًا. فإذا عمتي تصدر الأوامر ألا أخرج من البيت من الساعة الخامسة إلى الثامنة، وفي مرة حاولت أن أكسر هذا الأمر، فجئت إلى البيت متأخرًا بعد أن أَصبتُ من اللعب ما أحببتُ أن أصيب، فإذا عمتي ترسل وصفية مع صالح

السائق إلى الميدان الذي ألعب فيه أمام المدرسة، ووجدت نفسي أمام عمة أخرى، لا تعطي نقودًا ولا تتلطف، وإنما هي لأول مرة في حياتي تضربني.

هالني الأمر.

كيف تضربني؟ لو غيرها الذي فعل ذلك ما اهتممتُ، أما هي، هي بالذات، فلا بد من إجراءٍ سريعٍ وحاسم. ولا بد أن تعرف أن ضربي هذا لا يمر سهلًا دون عقوبات أُوقعها أنا عليها، فأنا لا أقبل إطلاقًا أن تغير معاملتها لي. لقد تركت بيت أبي لأنهم هنا يحسنون معاملتي، أما إذا بدأ الضرب، فلا بد أن أريهم أيَّ شيء خطير أنا.

لم أعد أذكر من عمتي غير الضرب، نسيت كل ما صنعتْه من أجلي، بل لعل هذا الذي صنعتْه يزيد من إصراري على الانتقام، ونسيتُ أيضًا لطف عمي البيه، والمفاجأة التي تمثلتْ وقت ذاك في كرة جديدة من أحسن صنف مع حذاء كرة لا يلبسه إلا كبار اللاعبين. هذا جميل في ذاته، ولكن ما فائدته إن لم ألعب به؟ وكل هذا لا يُبيح لها أن تضربني. طبعًا لم أفكر في العودة إلى أبي، فهذا شيء بعيد الاحتمال لا يجوز أن أفكر فيه، ولكن أيضًا السكوت على هذا الضرب محال، إن لي معهم لشأنًا أيَّ شأن.

* * *

انتهى الرأي عندي على الانتقام، ولكن نوع الانتقام لم يبدُ لي في الوضوح الذي أتمناه، فكرت أن أشرك وجدي معي، ولكن سُرعان ما طردتُ هذه الفكرة.

ما شأن وجدي، وممَّ ينتقم؟ إنه يذاكر كحمار، وهو في حالة صلح تام مع والديه. فكرت في وصفية، ما أجمل قوام وصفية! إنها تكبرني بثلاثة أعوام فقط، ولكن هذه الأعوام الثلاثة قد فعلت بها الأفاعيل: طويلة القامة، واضحة الصدر، لها ابتسامة تحسن صنعها، ولشعرها تهدُّل حلو كأنه دفقة ماء وافرة من ساقِية ذات ماء فياض. ووصفية لفاء العود.

أن تميل به، فإن مشتْ خُيِّلَ إليكَ أنها لا تريد أن تطأ الأرض إلا مسًّا هينًا كرعشة أصبع على وتر عود.

ولكن ما شأن هذا جميعه برغبتي في الانتقام؟ لا أدري، فكرتُ في وصفية أن تشاركني في الانتقام، وكنتُ أريد أن أحصل على موافقة منها على مبدأ الانتقام في ذاته، أما نوعه فهيِّن، ويمكن أن أبحثه معها فيما بعد.

ولكن هالني منها أنها تبذل الكثير من الاحترام والحب لعمتي. وهي في معاملتها لي حريصة كل الحرص أن تنفذ الأوامر الصادرة إليها، ولكن هذا الحرص لم يمنعها أن تصنع أشياءَ أخرى ما أظن أن عمتي أمرتها بها، فقد كانت في كثيرٍ من الأحيان تنام إلى جانبي، وتحتضنني في عنف، وكنتُ أجد لذلك في نفسي مشاعر تتأرجح بين الإقبال والدهشة، ولكنني مع ذلك لم أكن أضيق به أبدًا.

ما أظن عمتي كانت تأمر بهذا.

وحين كانت تقوم بحمَّامي كانت تقوم بأشياءَ لا أعتقد أن عمتي كانت تأمرها بها، حين كانت تختار أن تلعب معيَ العريس والعروس كانت تذهب في اللعبة إلى مدًى كنتُ أحس فيه أنه لا ينبغي أن يعرفه أحد. وكانت هي دائمًا تقول لي: إياك أن تخبر أحدًا بهذا الذي نصنع، وإلا كففنا عنه إلى الأبد. والحقيقة أنني لم أكن أحب أن نكف عنه، وإن كنتُ لا أدري لماذا لا أحب أن نكف؟

مع كل هذه الأسرار التي تجمعني ووصفية لم أجد في نفسي رغبةً أن أخبرها بعزمي على الانتقام.

والآن أصبحتُ أنا وحدي صاحب السر الرهيب، سر الرغبة في الانتقام دون أن أدري كيف يكون الانتقام.

تركت الفكرة تغوص في نفسي وتتمكن، وأصبح شغلي الشاغل هو التفكير في الوسيلة بعد أن أصبح المبدأ شيئًا غير قابل للمناقشة.

أصبحتُ لا أخرج للَّعب، وكنتُ أصحب وجدي ووصفية إلى السينما كل أسبوع، وأمِنَتْ لي عمتي، وأصبحتْ تظن أنني أبقى في البيت وأذاكر، وأنني نسيت تمامًا ضربها لي.

ولم تكن تعلم أن بقائي في البيت لم يصنع شيئًا إلا أن تُكثِر من لعب العريس والعروس أنا ووصفية، وأنني بعد مداومة هذه اللعبة أصبحت أجد فيها لذةً ربما تفوق اللعب بالكرة، ومع ذلك لم تتخلَّ عني فكرة الانتقام، بل ظلتْ تعمق في نفسي وتعمق، حتى لقد أصبحتْ جزءًا طبيعيًّا مني لا أتصور نفسي من غيرها.

اللذة الأخرى كنتُ أجدها مع صالح السائق الذي كان يعلمني قيادة السيارة في كل يوم ونحن عائدون إلى المنزل، وكنتُ في مقابل ذلك أعطيه ما أطيق، وأحيانًا ما لا أطيق من المال.

كنتُ من داخل أوامر عمتي أعيش في متعة دائمة، ومع كل ذلك لم أكن متأخرًا في دروسي، فقد كنتُ في المدرسة أنسى كل شيء إلا الدرس الذي يُلقيه علينا المدرِّس، وكان هذا كافيًا أن يجعلني تلميذًا معقولًا لا يلفت النظر بخيبته، ولا يلفت النظر أيضًا بتفوقه، وكانت راضيةً عن موقفي هذا من التعليم.

* * *

كان عمي البيه يصحبنا في الإجازات إلى قريته، وكنتُ أجد في هذه الزيارات للقرية متعة كبيرة.

وفي ليلةٍ أخبرتْنا عمتي أننا سنذهب في غدنا إلى القرية، وأن بعض الضيوف سيصحبون رحلتنا هذه.

لم يهمني شأن الضيوف، وفرحتُ بخبر الذهاب إلى القرية.

استيقظنا في باكر الصباح، وما هو إلا الوقت اليسير حتى كنتُ على أتم استعداد للرحلة.

وجاء الضيوف: إنهم عبود بك السيد الموظف الكبير بوزارة الزراعة، والسيدة وسيلة التي أُمرتُ أن أقول لها تنت وسيلة، فقلتُ. ومعهما ابنتهما حميدة.

حميدة ذات جمال أخّاذ رائع، ولكن الأسماء فيما أذكر أدهشتْني، وقد ظَلِلْتُ أفكر في هذه الأسماء حتى اليوم، وأحسب أنني انتهيتُ فيها إلى شيءٍ لا يخلو أيضًا من الغرابة، فقد خُيِّلَ لي أن اسم وسيلة هو الذي جعل عبود بك يتزوجها مستبشرًا أن يتزوج بوسيلة؛ فبالوسيلة يستطيع أن يترقى في وظيفته. أما حميدة فقد حيرني أمرها، ما الذي يجعل إنسانًا يسمي ابنته حميدة؟ والأسماء البراقة تملأ الدنيا. وفكرتُ في يوم ما أن رئيسًا لعمي عبود أصدر قرارًا وزاريًّا بتسمية ابنة الموظف الذي يعمل بوزارته حميدة، فنفذ الأمر. وكنتُ أظن أنني بهذا التفكير أسخر من عمي عبود، ولكن مع الأيام اتضح لي أن ما فكرتُ فيه هازلًا ساخرًا هو الجِد عين الجِد؛ فاسم حميدة هو اسم أم وكيل الوزارة، الذي وُلِدتْ حميدة عبود في أثناء توليه منصبه. وعرفتُ بعد ذلك فيما عرفتُ أن عبود بك تقدم إلى وكيل الوزارة: وُلدتْ لي بنت، وكنتُ أنوي لو جاءتْ ولدًا أن أسميه باسمك.

– يا سيدي بسيطة، سمها على اسم أمي، فأمي عندي أعز من نفسي.

فكانتْ حميدة.

ذهبنا إلى القرية ولازمتْني حميدة طَوال الوقت، فقد ظلتْ تنت وسيلة مع عمتي، وذهب عمي عبود مع عمي البيه لينظرا في أمر حديقة الموالح الجديدة التي ينشئها عمي البيه، ورافقهما وجدي الذي يزداد في كل يوم إصرارًا على أن يصبح رجلًا مهمًّا.

لم تجد حميدة مَن تمكث معه إلا أنا. كنتُ وإياها نبتًا أخضرَ بدأتْ تجري في عروقه مياه التباشير الأولى للشباب، فالحمرة تغشاها إن مدحتُ جمالها، وبريق من السعادة يطلق بعض الشرر من عينيها، ثم ما تلبَث أن تطبق على الجفن جفنًا، فيختفي الشرر ليفسح المجال لهمهمات صامتة من الخجل، وأنا لا يعنيني الخجل، فقد عرفتُ الجرأة في أحضان وصيفة، ولكن مشاعري مع حميدة تراوحني بأنسام جديدة، فالخفقات التي تهزني غير الخفقات التي أعرفها، والنبض غير النبض، والمشاعر

عندي نوع جديد من السمو والرفعة. إن ذُكرتْ حميدة زجرتُ التذكر بدَفَقات سماوية لا عهد لها بي، ولا عهد لي بها.

كان عمرانا يومذاك على مشارف المعرفة، وإن لم يبلغها؛ فلم تخف أمها أن تتركها معي. كنا في تلك السن التي يتحسس فيها الشباب طريقه إلى نفوسنا، لم يتمكن ولم يبعد قريب بعيد. يُسمع منه همسٌ ودبيبُ خطًى، ولكن الهمس غمغمة لا تَبين، والدبيب مترنح غير ثابت.

كنا في هذه الأيام التي نرى العالم جميعه لا شيء فيه إلا الجمال، تلك الأيام الخادعة التي تجعل الطفل الكبير منا يظن أن الدنيا ما خُلقتْ إلا لتكون طوع أيدينا، ونفاذ أمرنا، وتحقيق ما شئنا قبل أن نطلبه.

في مدرسة الليسيه هي، وأنا في الإبراهيمية، فحيٌّ واحد يجمعنا. وأبوها صديق عمي، والطريق بيننا موصولة، والحياة منسوجة من خيوط الورد والذهب، والحياة، ما أجمل الحياة!

الفصل الثالث

كثرتْ زيارات تنت وسيلة لعمتي، وكانت تصحبها دائمًا حميدة، وكنا دائمًا نجد الحديث بيننا.

إلا أن أسبوعًا مر دون زيارة منهما، ووجدتُ نفسي متلهفًا لرؤيتها، ولم تُجْدِ زيارات وصفية الليلية أن تخفف من لهفتي، ورحتُ أفكر فيما أستطيع أن أفعله، لماذا لا أذهب إلى مدرستها؟

ألَمَّ بيَ الخوف أن أفعل، فأجَّلتُ الذهاب يومًا، ثم يومًا آخر، ثم ذهبتُ، وأنا لا أعرف ماذا أنا قائل أو فاعل إذا لقيتُها. كنتُ قد تعودتُ أن أرجع إلى البيت وحدي بعد أن أصبحتِ السيارة مشغولةً دائمًا مع عمي، فقد كثرتْ أسفاره إلى القرية، وأصبح انتظامها في إحضاري أمرًا مستحيلًا. وأنا أيضًا أصبحتُ لا أتأخر عن البيت، فلم ترَ عمتي ضرورة أن ترسل من يصحبني، ونسيتْ عمتي أنها ضربتني يومًا، ولكنني أنا لم أنسَ أنني لا بد لي أن أنتقم، وإن تكن مشاعري الجديدة قد أجَّلتْ فكرة الانتقام، إلا أنها بالتأكيد لم تلغها تمامًا.

شارع مدرسة الليسيه ليس متَّسعًا، وقفتُ على الطوار المقابل في انتظار خروجها، كنتُ لأول مرة في حياتي مضطربًا.

خرج التلاميذ من صبيان وبنات، وبغباءٍ شديدٍ كان يخيَّل إليَّ أن كلهم يعرفني ويعرف لماذا جئتُ إلى هذا المكان؟ فأعطي المدرسة ظهري، ثم أخشى أن تخرج ولا أراها فأعود مرةً أخرى متطلعًا إلى التلاميذ.

وخرجتْ، وإنني رأيتُ حمرةً على وجهها، ورأيتُ فكرةَ ابتسامةٍ لم تتم، وسارتْ طريقَها، فمشَيتُ من ورائها. كانت معها تلميذتان لم أنظر إلى شكلهما تمامًا، فقد كان

الاضطراب يسود جسمي جميعًا وعيني خاصةَ.

نظرتْ إليَّ تلميذة منهما، ثم نظرَتِ الأخرى، ثم وجدتُ الركب يسرع الخطى بقيادة حميدة، ولم أطق أن أكمل الطريق؛ فمِلتُ عند أول شارع، وتهتُ، وعدتُ إلى البيت، ولحسن الحظ لم تكن عمتي هناك لتسألني أين تأخرتُ؟

لم يمر على هذا اللقاء يومان حتى جاءتْ تزورنا مع والدتها، وعند أول فرصة لحقتْ بي: أريد أن أكلمك.

– فصَعِدتُ إلى السطح.

وجدتُ كومة الجرائد فوق السطح، ووجدتُ السطح مليئًا بالغسيل المنشور. لم تعبأ هي بشيءٍ من هذا، وإنما بادرتني: لماذا جئتَ؟

كنتُ أعرف أنها ستسألني، ولكن لا أدري لماذا وجدتني في حاجةٍ أن أجلس.

جلستُ على كومة الجرائد وسكتُّ.

– لماذا تسكتُ؟

شَعَرتُ أني عطشان، ذهبتُ إلى حجرة الغسيل، وشَرِبتُ ماءً من الصُّنبور، ووجدتُ علبة كبريت، وفكرتُ أن أنتقم من اليوم الذي ضربتْني فيه عمتي، الفكرة ما تزال تلح عليَّ.

وضعتُ علبة الكبريت في جيبي، وعدتُ إلى حميدة، فوجدتُها قد جلستْ على الجرائد، وعادتْ تسأل في إصرار: لماذا جئتَ إلى المدرسة؟

– وأنتِ لماذا لم تأتي لزيارتنا هذه المدة الطويلة؟

– ألهذا جئتَ؟

– ألا تعرفين لماذا جئتُ؟

– ألم تخشَ أن تحرجني؟

– هل أحرجتُكِ؟

– تحيةُ تقول إنك جميل، هل أنت جميل؟

– سأبحث هذا الموضوع عند أول لقاء بمرآة.

– لا تبحثْه.

– هل أنا قبيح؟

– تحيةُ تقول إنك في غاية الجمال.

– وما رأيكِ في ذوق تحية؟

– لا تأتِ مرةً أخرى إلى المدرسة.

– وأنتِ لا تتأخري في الزيارة.

– ليس بيدي أن أزوركم، أو لا أزوركم، فأمر هذا بيد ماما، وأنت تعرف.

– كل الذي أعرفه أنه يجب ألا تتأخري في الزيارة.

– إذا تأخرتُ لا تأتِ إلى المدرسة.

– أكلمك في التليفون؟

– أهون، نعم كلمني. هيا قبل أن يسأل عنا أحد.

– انتظري، لي حساب أريد أن أصفيَه.

– مع مَن؟

– مع أصحاب هذه الملابس.

– عمتك؟!

– ألا ترين أنهم يملكون ملابسَ أكثر مما يجب؟

– وماذا تريد أن تفعل؟

– أجعل منها كميةً معقولةً.

– كيف؟

– سترين.

كانت قد قامت عن الجرائد، فجررتُ الكوم إلى أن أصبح تحت أحد الحبال العامرة بالغسيل، وأشعلتُ الجرائد.

– أنت مجنون ... ستحرق البيت.

– بعض ملابس فقط، هيا بنا.

كان لون حميدة ممتقعًا، وهي تنضم إلى والدتها وعمتي، فسارعتْ أمها ماذا بك؟

– لا شيء.

وخرجتُ أنا قبل أن تلح عليها في السؤال.

وما هي إلا لحظات حتى وصل دخان الحريق إلى بعض الخدم، وتلاحقتِ الأرجل في رعب إلى السطح، ولم أجد شيئًا أصنعه.

خيل إليَّ أنهم كلهم يعرفون، فجريتُ أهبط السلم، كنتُ الوحيد الذي يهبط، والجميع يصعدون.

حين أصبحتُ في الشارع؟ وجدتُ نفسي — دون أن أعرف — أذهب إلى أبي.

قابلتْني تفيدة.

دقتْ صدرها بمجرد أن وقع نظرها عليَّ: أمين ما لك؟

– ما لي، لا شيء.

– لا، أنت عامل عَمْلة.

– عَمْلة، عَمْلة إيه؟

– وشك كالبفتة البيضاء، أنت عامل عَمْلة.

– أين أبي؟

– في حجرته.

لم أصدق أنني نجوتُ من عينيها النافذتين.

– أهلًا أمين.

– كيف أنت يا بابا؟

– هيه، أترى جئتَ لأنك مفلس؟

– أبدًا والله، فقط اشتقتُ إليك.

– كنتُ الآن ذاهبًا إليك.

– لو كنتُ أعرف لانتظرتك.

– خيرًا فعلتَ على كل حال، نذهب معًا.

كنتُ أريد أن أعرف نتائج الحريق.

لقِيتُ عمتي بوجه متجهم، وكان واضحًا أنها تحاول أن تكتم أمرًا، فهي تغالب الغيظ في عنفٍ شديد: أهلًا سليم.

– وجدتُ أمين يهبط عليَّ فجأة، وكنتُ أنوي أن أجيء إليك.

والتفَّتْ إليَّ عمتي بوجهٍ يزداد تجهُّمًا: لماذا خرجتَ دون أن تخبرني يا أمين؟

– أردتُ أن أذهب لأبي.

– وأنا كيف أعرف أنك ذهبتَ لأبيك؟

وتدخّل أبي مسرعًا (مسارعًا): كيف لم تخبر عمتَك؟

وأطرقتُ، كان يجب أن أقول شيئًا يفيد أني آسف، ولكنني لا أحب. وكنتُ أعلم أيضًا أن السؤال لم يكن على الخروج، لم أجد شيئًا أفعله خيرًا من ترك الغرفة، وقبل أن أصل إلى الباب لحق بي صوت عمتي: اذهب إلى غرفتك يا أمين.

وقفتُ هنيهةً قدر ما سمعتُ الأمر الصارم الذي أفهمني أشياءَ كثيرة. وخرجتُ لم أستطع أن أذهب إلى الغرفة، وإنما صعِدتُ إلى السطح. وجدتُ آثار الحريق، لم تكن بشعة، لقد استطاعوا أن يتحكموا فيه سريعًا، ويقول صالح: لولا أن الغسيل كان لا يزال مبلولًا لاحترق البيت جميعُه. لم أكن أقصد أن أحرق البيت جميعًا، فما كنتُ أحب أن أعود إلى بيت أمي. عجبتُ من نفسي وأنا أفكر هذا التفكير، لم يهمني أن عمتي ووجدي وعمي البيه وصالح ووصفية وباقي الخدم جميعًا قد يقتلون، وكل ما فكرتُ فيه ألا أذهب إلى بيت أبي. لم أتكلم، ولكن عينَيْ وصفية كانتا مثبتتين عليَّ لا تريمان وأخيرًا قالت في حدة: تعال.

– إلى أين؟

– تعال.

وفي الغرفة سألتْني وصفية: لماذا فعلتَ هذا؟

– أعرفتْ عمتي أنني أنا الذي فعلتُ؟

– لماذا فعلتَ هذا؟

– لأن عمتي ضر...

– أكمل.

– كنتُ ألعب، لا تخبري أحدًا.

وتدخل عمتي.

– لو كنتَ أصغرَ لقلتُ كان يلعب، ولكن أمثالك يتزوجون الآن، وصوتك أصبح خشنًا وشاربك بان، فأنتَ لستَ صغيرًا، ولو كنتَ أكبر لقلتُ ... ماذا أقول؟ حقد، لا يمكن ابن أخي يحقد عليَّ، لا يمكن. أمين، أرجوك، أرجوك قل فقط لماذا فعلتَ هذا؟

– هل أخبرتِ أبي؟

– هل هذا هو كل ما يهمك؟

– لم أكن أتصور أن الجرائد إذا أشعلتُها ستفعل كل هذا.

– أهذا هو كل اعتذارك؟

– لم أقصد.

– وماذا أقول لزكريا؟

– عمي البيه؟!

– وهل ذكرتَ بيت عمك البيه، وأنت تفعل فعلتك هذه؟

– لا تخبري عمي البيه.

– أمين أنا خجلة منك، والألعن من ذلك أنني خجلة من نفسي، كأنني أنا التي أشعلت الحريق.

وتخرج عمتي، وألتفتُ إلى وصفية: أتظنين أننا سنرجع إلى بيتنا؟

– ليس هذا بعيدًا.

– لا أريد أن أترك هذا البيت.

– فلماذا أردتَ أن تحرقه؟

– لم أفكر أن أحرقه.

– هل صحيح أن صوتك أصبح خشنًا، وشاربك بان، أرني شاربك.

وتقبلني وصفية قبلةَ نهمةَ، وأتخلص منها.

– لا أريد أن أعود إلى البيت.

– لو كانت تنوي أن تعيدنا إلى البيت لقالتِ الآن لسليم بك ليأخذَك معه.

– صحيح.

– ولِمَ حاولتْ أن تظهر كل هذا الغضب عليك؟

– آه فعلًا.

ويرِن جرس التليفون، وأسارع إليه لا أدري لذلك سببًا، وتحاول وصفية أن تمنعني لترى شاربي، ولكني أتخلص، وأرفع السماعة: حميدة، أنا أمين.

– هل أنتَ بخير؟

– عمتي غاضبة جدًّا.

– هل حصل شيء للبيت؟

– أبدًا بعض الغسيل فقط احترق.

– الحمد لله، مع السلامة.

– مع السلامة.

وشعَرتُ بفرحة غامرة من هذا التليفون، ورجعت مرحًا خفيفًا إلى وصفية، فوجدتها في غرفة النوم، وإن كانت قد استلقتْ على السرير واثقةً أن عمتي لن تعود إلى غرفتي ثانية.

وفوجئتْ بي وصفية أقبلها في فمها قبلةً محمومةً كقبلتها، وانفرجتْ عيناها عن دهشةٍ بالغة: بسم الله الرحمن الرحيم، خرجتَ بحال وعدتَ بحال.

– ألا تقولين إنك تريدين أن ترَيْ شاربي؟

– ولم تكن راضيًا.

– وتحبين أن تري صوتي أيضًا؟

– أرنيه.

ومنذ ذلك اليوم أصبحتْ علاقتي بحميدة علاقة شاب لا صلة له بالطفولة بفتاة هي التي أخذتْ بيده إلى الطريق الذي تريد.

الفصل الرابع

عبد المنعم عزمي زميلي في الفصل منذ دخلتُ المدرسة، ومن الطبيعي أن أرويَ له كل صِلاتي العاطفية وغير العاطفية، والغريب أنه يائس يأسًا تامًّا أن يصل الأمر بيني وبين حميدة إلى زواج، فهو يرى أن فارق السن بيننا ليس كبيرًا، وأنها ما تلبث أن تُخطب، فهو لذلك ينصحني أن أودِّع هذا الحب إلى غير رجعة. ولم يكن هذا الذي يطلبه ميسورًا، فأنا لا أتصور بحالٍ أن حياةً يمكن أن تقوم لي إذا خلتْ من حميدة. وكم كنتُ أضيق بأوامر بيتها ألا تخرج إلا مع أمها، فإن خرجتْ وحدها لتذهبَ في زياراتٍ يعيِّن أهلها رقباءَ عليها فيها. ولكن هذا جميعه لم يكن يمنعنا من اللقاء، فقد كنتُ أعرف مواعيد زياراتها، وكنتُ ألقاها قبيل الزيارة أو بعدها. وكنا نسير في الطريق يدها في يدي، ثم لا شيء بعد ذلك. كلمة أحبكِ أقولها أو تقولها لا تحمل حقيقة المشاعر التي أحسها نحوها، والتي أعتقد أنها تحسُّها نحوي. تروي لي عن أبيها وعن أمها، وأروي لها عن عمتي وعن أبي وعن جدي. كثيرًا ما أروي لها عن وجدي، فهو لا يرى من الحياة إلا وجهًا جادًّا لا ابتسام فيه ولا عبث، وكانت هي تعجَب به من أجل ذلك، وكنتُ أنا أراه سخيفًا من أجل ذلك نفسه.

وكثيرًا، كثيرًا ما أشرتُ لها بمخاوف عبد المنعم، أو منعم كما تعودتُ أن أناديَه أو أذكره، وكانت هي دائمًا تطمئنني أنها لن تتزوج، حتى تنتهي من الكلية.

– حتى ولو كان الزوج أنا؟

– حتى ولو كان الزوج أنت.

وكنتُ أطمئن، فالذي لا شك فيه أنني لو سرتُ في الدراسة كما تعودتُ أن أسير؛ فأنا سابقها إلى التخرج.

هكذا كنتُ أقول لمنعم، ولكنه هو لا يحب الحب على أية حال. إنه معجب كل الإعجاب بالصلة بيني وبين وصفية، أما ذلك الحب ذو اليد في اليد، وبناء المستقبل من الأحلام والرؤى الوردية بلا مناسبة لها، وذلك الخفق الذي يتولى القلبَ للأسى فليس إلا أعراضًا تصيب الأطفال ولا يعرفها الكبار من أمثالنا. وكان هو في صِلاته الخاصة يرفض هذه العلاقات في حياته، ولا يقبل إلا نوعًا واحدًا من العلاقات.

أخبرني منعم في يوم أنه ذاهب إلى فرح إحدى قريباته، وحاول أن يأخذني معه، ولكني خجلتُ أن أذهب إلى فرح بغير دعوة. وكم لُمتُ نفسي في ذلك اليوم لرفضي الذهاب؛ فمعروف أن الأفراح إنما تعمر بغير المدعوين، فماذا كان عليَّ لو ذهبتُ وقضيتُ ليلةً ممتعةً؟ ولا أحد يعرف عيشة في سوق الغزل. كم تتحكم فينا هذه العادات السخيفة التي لا معنى لها ولا معقولية! المهم لم أذهب.

وفي اليوم التالي من الفرح وجدتُ منعم مشرق القسمات فرحًا تحيط به نشوة عارمة. أما ليلة.

– كيف؟

– تاريخية!

– ماذا؟ وقعتَ معاهدة عن مصر؟!

– وقعتُ عهدًا مع هناء البدري.

– مَن هناء البدري؟

– أشهر راقصة في كازينو الفجر.

– وقعتُ معها عهدًا!

– غير مكتوب.

– وما شروط العهد؟

– تنتظرنا الليلة في الكازينو.

– أنا؟! ما دخلي أنا في الموضوع؟

– كلمتها عنك.

– عني أنا؟

– كلمتها عن جمالك.

– ماذا جعلتَ مني يا منعم؟

– ألا يسرك أن أتحدث عن جمالك؟

– إن جعلتَ من جمالي هذا وسيلة لعلاقاتك الخاصة، فإن هذا لا يسرني أبدًا.

– يا أخي سنذهب معًا.

– وأنا كيف أذهب؟

– على رجليك.

– وماذا أقول لعمتي؟

– إنك ستذاكر معي.

– ومتى الموعد؟

– الليلة.

* * *

دنيا أخرى، حياة غير الحياة، المكان لا ينتسب إلى ما نعرفه من الأمكنة، والزمان ملغًى، لا وجود. والمال منزوف من جيوب إلى صدور وجيوب. حياة لا نعرفها في الحياة، ودنيا لا صلة لها بالدنيا، أنا فيها تائه، لا أعرف لي سمتًا أتسمَّته، ولا هدفًا

أسعى إليه، وإنما أنا خشبة في تيارٍ يجري بي لا أدري من أين تلقّفني، ولا أين يلقي بي؟ منعم يدعي المعرفة، وهو أشد مني جهلًا، وأكثر ضياعًا. نحن على مائدة.

– كم معك؟

– خمسة جنيهات.

– أنا معي جنيهان.

– إن ما معنا لا يكفي ثمنًا لكوب ماء.

– إننا أصدقاء هناء.

– هناء لم ترنا بعد.

– سوف نلتقي بها.

– وإلى أن نلتقي ماذا نفعل؟

– ننتظر.

– وهل ينتظرون علينا؟

– تظاهر بالعظمة.

– إن الناس تنظر إلينا في تعجب، ولن يُجدينا التظاهر بالعظمة.

– وما نظر الناس إلينا؟

– ألا ترى أننا أصغر من المكان؟

– فشر.

– وحياة والدك لا تكن مغرورًا، كلانا هنا ضائع.

– تكلم عن نفسك.

– وعنك قبلي.

– يا جدع عيب أنا منعم.

– طظ.

– سترى.

– هل دخلتَ مكانًا مثل هذا قبل الليلة؟

– وهذه هي الجدعنة أن تكون جديدًا على المكان، وتبدو وكأنك من رواده الدائمين.

– ماذا تطلبون؟

– نعم!

– الكلام واضح.

– رد يا منعم.

– الآنسة هناء البدري.

– لم تأتِ بعد.

– ننتظرها.

– إذن لا تطلبون شيئًا.

– عندك بيرة؟

– الزجاجة بجنيهين.

– هات زجاجةً.

– أتريد شيئًا بجانبها.

– سلامتك.

– بجنيه.

– سلامتك؟!

– لا، المزة.

– هات مزةً.

– اعقل يا منعم.

– اسكت أنت ... هيا يا متر ماذا تنتظر؟

– ألا تريد شيئًا آخر؟

– ألا يكفي هذا؟

– مؤقتًا لا بأس.

– إذن فاذهب.

دنيا أخرى، حياة غريبة على حياتنا، ومع ذلك فهي الدنيا كل الدنيا، والحياة كل الحياة لقوم أصبحوا لا يعرفون عن حياتنا نحن شيئًا، ولا يريدون أن يعرفوا. نسيتُ منعم، ونسيتُ السبب الذي أتى بي إلى هنا، ورحتُ أطالع الوجوه من رجال ونساء، خُيِّلَ إليَّ أن هذه الوجوه نبتتْ في هذا المكان، وأنها إذا خرجتْ من هنا غُمرتْ واضمحلتْ، وأتى عليها ما يأتي على نباتٍ اقتُلع من أرضه. كذبٌ ما نسمعه أن أولئك النسوة تعيسات، أو أنهن يحاولن أن ينسَين شيئًا. لم يعد في حياتهن شيء يردن أن ينسَينه، إنهن متأقلماتٌ مع مكانهن هذا، ومع ناس هذا المكان. هكذا في نظرة مفعمة، اقتربت إحداهن من منضدتنا.

– مرحبًا بالدم الجديد.

– بعيد عنك عندنا فقر دم.

– فقر دم أم فقر جيب؟

– اسم الله عليك فهمتيها.

– أحيانًا الدم الجديد يعوض فقر الجيب.

– ترضين بنا.

– يا أختي عليه.

– لا نريد أختكِ.

ونظرتْ إليَّ.

– وأنت يا قمر جئتَ من أجلي؟

– تصدقين إن قلتُ نعم؟

– يا ابني نحن هنا نلغي عقلنا ونصدق كل شيء.

– وإن كنتُ جئتُ من أجلكِ؟

– من أجل هذا الوجه وهذين العينين أترك الدنيا كلَّها، يا عمري عليك وعلى عينيك.

– وقفز منعم إلى الحديث.

– يا ست عيناه فقيرتان.

– أغنى عينَيْن في الدنيا، يصاحبني هو ولا شأن له بالغنى والفقر.

– يخرب بيتك ستودي بنا في داهية، يا ست إننا جئنا على موعد مع هناء البدري.

واتنترت الفتاة واقفةً.

– يا نهار أسود، لماذا لم تقل هذا من الصبح؟

وسارعتُ أنا أقول: يا ست أنا لا أعرفها، أنا جئت مع صاحبي.

– ألم تركَ بعد؟

– اطمئن، ستصبح صديقها منذ الليلة.

وكأنما غَضِبَ منعم: ماذا تقصدين، صديقها وحده؟

– لا تعتق هناء هذا الجمال أبدًا.

– وأنا؟

– أنا في انتظارك وأمري لله، ولو أن شكلك يعني ...

– ماله شكلي؟

– شتان.

– نغيره.

– لا تغيره شيئًا، لعل دمك يكون خفيفًا.

– شربات وحياتك.

– أنا في انتظارك؟

– خذيني من الآن.

– حتى تأتي هناء، أنت لا تعرف.

– إنها صديقتي.

– متى عرفتها؟

– من زمان.

– قَلَّ أن تعرف هناء أحدًا من زمان.

– من زمان وشرفك.

– كتر خيرك. أي زمان؟ الذي يبحث يجدك لم تدخل المحل إلا الليلة.

– كيف؟

– أنا لم أرك قبل الليلة، ولو كنتُ رأيتك ما أخطأتك.

– شكلي حلو، أليس كذلك؟

– لا شعرت، دم جديد، ونحن نحب الدم الجديد. عن إذنكم، حتى لا تراني هناء معكما.

وهمتْ بالانصراف، فأمسكتُ بيدها.

– انتظري، اسمك؟

– ماذا تفعل به؟

– نتعارف.

– لا تقل لهناء أنك عرفتني.

– لا تخافي.

– وفاء كمال.

– ونعم بالوفاء والكمال.

– ونعم بك أنت يا قمر، عن إذنك.

وأمسكتْ بدقني وهزت وجهي هزًّا رقيقًا، وانسحبتْ عنا، ونظر إليَّ منعم.

– صداقتك وش خير.

– أترى ذلك؟

– ممكن أن نأكل الشهد من ورائك.

– وماذا أنت فاعل إذا أحبتني هناء؟

– أنا أعرفها قبلك.

– وماذا تريد؟

– ولا يهمك حبها.

– اسمع أنا أحب حميدة.

– انس حميدة هذه هنا تمامًا.

– أريد أن أطمئنك، أنا لن أحب أحدًا.

– إنك ستصادق النساء هنا، مسألة حبك لهن، أو عدم حبك لا يهمني أنا في شيء، ولكن المهم لا تستولِ على الجميع، وتتركني ضائعًا بلا شريكٍ ولا أنيس.

– لا تخف.

– وانسَ حميدة.

– سأنساها هنا على الأقل.

جاء القاهي.

– تفضلا.

– الست هناء جاءت؟

– وتريدكما.

ذهبنا إلى حجرةٍ صغيرةٍ، لم ألتفت إلى شيء فقد كنتُ منصرفًا بكل تشوقٍ إلى هناء التي ساقني إليها حديث منعم الطويل.

إنها حقّا جميلة، ولكن خفة الدم في وجهها أهم من الجمال، سمراءُ هي ذات شعر أسود صقيل ناعم وعينين ناعستين في ذكاءٍ، وإشعاع يمتد إليك فيطويك فتستسلم له في خَدَر واستمتاع، ولها قَوام لا تملك إلا أن تتمنى احتضانه، فهي طويلة هيفاء رقيقة في فتنةٍ طاغية، صارخة الدعوة كأنها صوت مرتفع يدعوك إلى المتعة. كنتُ أنقل عيني على مواقعها، ثم انتبهتُ إليها، فإذا هي مثبتة النظرة في وجهي، وجدتها فاغرةَ الفاه، داهشةَ العينين.

وسمعتُ صوتًا من بعيد: أمين سليم، صاحبي.

– يا بختك.

– اتفضلي.

– أنا تفضلت فعلًا، تعال يا أمين.

ودون أن أدري ما يراد بي وجدتُ نفسي في أحضان هناء، ووجدتُ نفسي غارقًا في قبلة لم أعرف لها مثيلًا على شفتي وصفية.

التمرين هو كل شيء في الحياة.

الفصل الخامس

لم تستطع الحياة الجديدة أن تنأَ بي عن النجاح، ولا عن حميدة، فقد كنتُ أعتبر صلتي بهناء نوعًا من المتعة، أما صلتي بحميدة، فنوع من الرُّوحانية، الوحيدة التي تأثرتْ صِلتي بها هي وصفية، فقد أحسستُ أنني عازف عنها أو شبه عازف.

وكانت عمتي تصدق دائمًا أنني أذاكر مع منعم، وكانت نتائجي تؤكد لها صدق المذاكرة، فالموهبة التي أتمتع بها في فهم الدروس وهي تلقى عليَّ في الفصل موهبةٌ أكاد أتفرد بها بين زملائي جميعًا.

وهكذا وصلتُ إلى الجامعة في يسر، وكان لي مجموع يمكِّنني أن أختار، فاخترتُ كلية التجارة، واختار وجدي كلية الزراعة.

ولما حصل وجدي على الثانوية العامة أحضر له أبوه سيارةً يذهب بها إلى الجامعة، وأحسستُ أن عمتي واقعة في حرجٍ كبيرٍ بالنسبة إليَّ، فهي لا تستطيع أن تهدي لي سيارةً، ولماذا لا تستطيع؟ إن عندها مالًا يكفي أن تشتري لي سيارةً، بل وعشر سيارات إذا شاءت، ولكن أيهون عليها مبلغ ضخم كهذا؟ الأغنياء أشد حرصًا على أموالهم من الفقراء أمثالي. لماذا أنا فقير؟ إن أبي أخوها، ولكنه لا يملك إلا بقايا هزيلة من أرض ومرتبة، أما هي فترفل في غنًى فاحش.

عجيب أن الفلوس دائمًا تعرف طريقها إلى الفلوس.

إن عمتي لم تبع من أرض أبيها شيئًا في حين باع أبي أرضه جميعًا إلا خمسة أفدنة، أغلب الأمر أنه أبقاها للذكرى، وليكون له ببيت القرية صلة، أي صلة؟

وتزوج أبي من أمي وهي فقيرة مثله، وحين يجتمع الفقران تصبح الحياة كآبةً وضيقًا وحرجًا. وأنا لا أنسى سعادة أبي أنني أُرَبَّى في بيت عمتي، هذه السعادة التي

أتاحت لي أن أنال مزيدًا من المال منه، الأمر الذي جعل يدي مبلولةَ دائمًا، فعمتي تعطيني على غير علم من أبي، وأبي يعطيني على غير علم من عمتي، وأفوز أنا بنفحات الاثنين. وأنا أقدِّر طبعًا سعادة أبي وهو يعطيني، وما عطاؤه هذا إذا قورن بما كان عليه أن يبذله في الإنفاق عليَّ؟! إن عمتي تقوم بكل شأني من ملابس ومصاريف وطعام، وأنا على ثقة أنها لا تأخذ من أبي مليمًا واحدًا.

وأنا لا أشعر بأي غضاضةٍ في هذا، فأنا ما دمت تلميذًا لا بد أن ينفق عليَّ أحدٌ من الناس. أن يكون هذا الأحد عمتي أو أبي، هذا أمر يسوِّيانه بينهما دون أي تدخل مني ولا غضاضة.

أحيانًا أشعر بشيءٍ من الخجل أمام وجدي، ولكنه خجل لا يلح عليَّ، وسَرعان ما يذوب في تيار الحياة الصاخبة التي أعيشها.

ومنذ عرفتُ هناء أصبحتْ حالتي المالية ثراءً فاحشًا، ففي يوم زرتها في البيت، فإذا هي تلقاني في ابتسامةِ من يخفي شيئًا مفرحًا. اذهب إلى حجرة النوم.

– ألا أشرب شيئًا أولًا؟

– بل تذهب أولًا.

– وحدي؟

– ستجد لفافةً، فضها وقل رأيك.

وذهبت فوجدت بلوفر الصوف الإنجليزي الفاخر، ومعه قميصان من أحدث طراز، شكرتُها وأطلتُ في الشكر، حتى إذا هدأ بنا الشكر قليلًا: هناء.

– هيه.

– أنت تعرفين عني كل شيء.

– ماذا تقصد؟

– إنني أعيش مع عمتي ولست مع أبي.

– طبعًا.

– ماذا أقول لعمتي عن هذه الهدايا؟

– آه صحيح، لم أفكر في هذا.

– إنها تعرف كل شيءٍ ألبسه، فأنا لست ابنها، والإنسان لا ينسى الأشياء التي يأتي بها لغير ابنه.

– فعلًا.

– في هذه المرة سأقول لها إنني اشتريت هذه الأشياء من فلوس أخذتها من أبي. ولكن بعد ذلك؟

– اسمع، أنا لا أستطيع أن أحبك ولا أقدم لك هدايا، وتصرف أنت مع عمتك كيف تشاء.

– ولماذا لا تجعليني أنا أشتري هذه الهدايا؟

– تقصد ...

– أقصد كلما أردتِ أن تشتري هديةً قولي لي عنها، وأنا أقوم بشرائها.

– وماذا تقول لعمتك.

– الفلوس يمكن أن تختفي، أما الملابس ...

– آه فهمت، ولد! هل عرفت أحدًا قبلي؟

– أنا، لقد تسلمتِني وأنا طفل أحبو.

– من أين تعلمتَ كل هذا؟

– أنتِ تجهلين قدرك كأستاذة.

أصبحتُ منذ اليوم في بحبوحةٍ من المال، ولكنها على كل حال بحبوبة لا تتيح لي أن أشتريَ سيارةً، وإنما تسمح لي أن أنفق على السيارة إذا جاءت.

حاولتْ عمتي محاولةً فاشلةً أن تخفف وقع سيارة وجدي عليَّ: ستكون سيارتك أنت وهو، وجدي أخوك، وسيارة واحدة تكفيكما. ولا شك أن عدم الاقتناع كان واضحًا على وجهي.

الشعور بالفقر مَرير، والشعور بالفوارق أشد مرارةً، لو لم تأتِ سيارة وجدي ما أصبحتْ عندي مشكلة، ولكن هذا شعور عجيب، لماذا وضحتِ المشكلة عندما أصبح لوجدي سيارة؟ إنني على الحالين، سواء اشتُريَ لوجدي سيارةً أو لم يُشترَ له، ليس عندي سيارة، فلماذا هذا الحزن المرير والألم والسخط، بل والثورة، لماذا هذا جميعه يمور في نفسي؟ لأنني لا أملك سيارة؟ وإنما فقط لأن وجدي أصبح عنده سيارة؟ أليس هناك طلبة آخرون عندهم سيارة؟ فلماذا تحرقني سيارة وجدي بالذات؟ انهمرتْ على نفسيَ الآلام، لماذا وجدي غني وأنا فقير؟ ولماذا يربَّى في بيت أبيه ولا أعيش في بيت أبي؟ ولماذا لا يكون الناس جميعًا أغنياء؟ أو لماذا لا يكون الناس جميعًا فقراء؟ ولماذا لا يستطيع الآباء جميعًا أن يلبوا مطالب أبنائهم؟ ولماذا جاءوا بهم إذا كانوا عاجزين عن تلبية رغباتهم؟ كيف تلد لحظة المتعة كل هذا الشقاء للبشرية؟ إذا كنتُ وحيد أبي ولم يستطع أن يقوم بشأني، فكيف به لو كان قد جاء معي بإخوة وأخوات؟ أكان سيرمي كل واحدٍ منا عند عمة أو خالة، إلى الجحيم هؤلاء الأخوة جميعًا؟ بل إلى الجحيم الناس جميعًا كلهم أجمعون. أب لا يقدم لي إلا مالًا هزيلًا، وعمة تأتي لابنها بسيارة ولا تأتي لي بمثلها، وقوم كلهم أغنياء أو غير مبالين، كلٌّ له شأنٌ يغنيه. وأنا لولا هناء لكنتُ شيئًا ضائعًا لا طعم له، ولا لون، ولا رائحة.

كنتُ في غرفتي لا أجد شيئًا أصنعه، فقد كنتُ أقصد في هذه الأيام التي تلتْ مجيء السيارة أن أتجنب عمتي، وأتجنب الخروج مع وجدي في سيارته، وكنتُ في هذا الوقت من اليوم الذي لا أستطيع أن أصنع فيه شيئًا؛ ميعاد الكباريه لم يأتِ بعد، وهناء نائمة، ومنعم أيضًا نائم، وأنا استيقظت منذ قليل أواجه الوحدة، نوعًا من الوحدة

العجيبة التي قد لا يعرفها أحد، فإن لي أصدقائي ولي من أحبهم ومن يحبونني، ولكنني كنتُ كثيرًا ما أشعر بالوحدة في داخلي، لا أدري من أين كان يهاجمني هذا الشعور بالوحدة كلما خلوت إلى نفسي؟ أتراه ينطلق إليَّ من موت أمي، أم من إقامتي في غير بيت أبي؟ ربما، فقد حُرمتُ أمي وأنا بعدُ صغير، وعشت في بيت عمتي منذ منابت صباي وشبابي، ولكن من الطبيعي أن أتعود الأمرين، لا أدري، كل ما أدريه أنني كثيرًا ما كنتُ أشعر بالوحدة، وكنتُ أواجه هذا الشعور بحديث مع حميدة، فهي الوحيدة بين كل من أعرف التي كنتُ ألقي بوحدتي على عتباتها، فأشعر بأنني شيء ثمين يمكن أن يحبه مخلوق نوراني كريم. لم تستطع هناء كما لم تستطع وصفية من قبل أن تُلحق أي أثر بالحب الصارخ العملاق الذي كان ينمو في كِياني لحميدة، حتى لم يكن المستقبل يعني شيئًا بالنسبة إليَّ إذا هو خلا من حميدة، وكان حبي لها يتمثل في حديث بيننا يجري عبر التليفون أحيانًا، أو يجري في لقاءٍ سريع تصطنع هي أسبابه في أحيانٍ أخرى.

وكم خلا بنا المكان، ولكني لم أجرؤ على تقبيلها، بل إنني حتى لم أفكر، والشعور العجيب الذي كان يراودني دائمًا هو خوفي أن يطغى بيَ الحب يومًا؛ فأجد نفسي أقبلها، وتسكت هي على قبلتي دون مقاومة أو زجر وتعنيف. لم أكن أتصور أنها ترضى أن يقبلها أحد، حتى ولو كان أنا. لم تكن حميدة عندي حبًّا ترويه القبلات، وإنما كان حبًّا أشبه بالصلاة أتخشع في محرابه مثل عابدٍ متصوفٍ ينسى في هذا المحراب من الحياة كل الحياة، ولا يتمثل له إلا حبه وصلاته.

– ألو.

– أين أنتَ؟

– بل أين أنتِ؟ أنا أطلب يوميًّا ولا تردين.

– كان أبي بجانب التليفون دائمًا.

– خير.

– حركة ترقيات ينتظر أخبارها.

– أريد أن أراكِ.

– آه، لا أدري كيف، اسمع.

– هيه.

– هل تستطيع أن تنزل حالًا؟

– فورًا.

– نلتقي على أول شارعنا.

– اقفلي السكة.

– اقفل أنت.

– لن أضع سماعة التليفون قبلكِ أبدًا.

– حسنًا، سأفعل أنا، وتنزل فورًا.

* * *

– كان لا بد أن أراكِ.

– خيرًا.

– أحس بالضياع وأنا بعيدٌ عنك.

– أتذاكر يا أمين؟

– المؤكد أنني سأنجح، وأنتِ؟

– أنا أيضًا سأنجح، ولكن ...

– ماذا؟

– لا أريدك أن تشغل نفسك.

– بماذا؟

– بي.

– خاطِبٌ آخر!

– ثري.

– وماذا فعلتِ؟

– رفضتُ.

– وبعد؟

– أبي مُصِرٌّ.

– وبعد؟

– تصرفتُ أنا.

– كيف؟

– تصرفتُ والسلام.

– كيف؟

– أقول لك ولا تضحك؟

– لا، لن أضحك.

– صفعته.

– ماذا؟

– صفعته بالقلم على وجهه.

– العريس؟

– العريس.

– كيف؟

– جاء يومًا مع أمه، وفتحت الباب، وبالصدفة لم يكن أحد واقفًا بجانبي، فوجدت نفسي أرفع يدي في الهواء، وأهوي بها على وجهه.

– يا خبر أسود.

دقت أمه صدرها: يا لهوي! إيه ده يا بنتي اللي بتهببيه. ونظر هو إليَّ مليًّا، وكأنما فهم كل شيء. مسكين والله، صعب عليَّ يا أمين، بصحيح صعب عليَّ، أرادت أمه أن تدخل؛ فأمسك بيدها، وعاد بها يهبط السلم، هو صامت وأمه لا تكف عن الكلام: بسم الله الرحمن الرحيم، ده البنت مجنونة، الحمد لله اللي عرفنا من بدري، يا عيني يا ابني، لا حول ولا قوة إلا بالله.

أمسكتُ فجأةً بحميدة، وهوَيت عليها أريد أن أقبلها في الطريق؛ فإذا هي فجأة تتجمد كأنها تمثال من أعصاب، ووجدتُ نفسي تعود إليَّ قبل أن أكمل المحاولة، ووجدتُ موجةً من الطمأنينة والانشراح تملأ صدري، ثم رحت أضحك كمجنون من كل شيء، من القلم الذي أكله خطيبها، ومن تعليق أمه، ومن هجومَي الأرعن، ومن تجمد حميدة. ونظرتْ إليَّ حميدة بضع لحظات، ثم انفجرت هي الأخرى ضاحكةً، وكأنما كانت ترى كل ما أضحك من أجله متمثلًا في ضحكتي المجنونة الطاغية.

* * *

عدت منتشيًا إلى البيت، فلا أدري لماذا لم أجد في نفسي خفةً إلى هناء في ليلتي تلك، لم أمِلْ على أحد من أهل البيت، فقد كرهت أن يرانيَ أحد منهم فرحًا، فأنقل إليه فرحتي، وأنا لا أريد لأحدٍ منهم أن يفرح.

قصدت إلى حجرتي، فإذا وصفية نائمة في سريري ملقية نفسها لابسة لبسها المفضل، فهي عارية كاسية. لم أدهش، ولكنني كنتُ أريد هذه الليلة أن تظل ملكًا لحميدة.

– عندي لكَ أخبار مدهشة.

– صحيح، ماذا؟

– الدفع مقدمًا.

– تحت أمرك.

– قبلة طويلة.

– أهي كل الثمن؟

– الباقي بعد أن تسمع الأخبار.

ودفعت المقدم.

– قولي.

– غدًا ستكون عندك سيارة.

– ماذا قلتِ؟

– ما سمعتَ.

– وتريدين قبلةً واحدةً؟

– مجرد مقدم.

– كيف عرفتِ؟

– بوسائلي الخاصة.

– احكي لي.

– فوجئتُ بأبيك قادمًا إلى هنا، سأل عليك، قلت: خرج. وسأل عن الست، فذهبتُ به إلى حجرة البوفيه، وجلسا، وكان الباب مفتوحًا فسمعتُ.

– ماذا سمعتِ؟ قولي.

– يا سليم، لا بد أن نشتريَ سيارةً لأمين.

– سيارة كيف؟! أنت تعرفين.

– بع فدانين، وسأكمل أنا الباقي.

– إلى هذه الدرجة؟

– وجدي الآن عنده سيارة، ولا أحب أن يشعر أمين ...

لم أعد أسمع. بنت الكلب! أكان لا بد أن تجعله يبيع فدانين؟ كانت تستطيع أن تدفع الثمن كله، ماذا يصيب الثراء الفاحش إن نقص منه ألفان أو ثلاثة آلاف؟

غناهم يزيد حرصًا على الغنى، كم فدانين عند أبي حتى يبيع؟ وماذا يبقى لي إذا عرف طريق البيع؟

الفصل السادس

ذهبتُ في باكر الصباح إلى الكلية، فاليوم هو أهم يوم في حياة التلميذ: نتيجة البكالوريوس. نجحتُ. لم أكن أتوقع مطلقًا شيئًا غير هذا، فقد كنتُ حريصًا دائمًا على حضور المحاضرات، وما كنتُ أسمعه ينطبع في رأسي لا يخرج منه، حتى أضعه على ورق الإجابة. التقدير جيد، لا بأس.

كانت عمتي أول من لقيني في البيت، رأيتُ الفرح الصادق على وجهها، إنها فرحة؛ لأنها تعتقد أنها هي التي نجحت، تعتقد أنها هي التي صنعتني، تعتبرني ملكيةً خاصةً لها. لم يكن هناك وقت أضيعه أكثر مما أضعت، فقد انتظرتني حميدة أربع سنوات كاملة. عمتي أريد أن أخطب.

– ابتسمتْ في خبث.

– يحق لك، ولكن ألا تنتظر حتى تُكوِّن نفسك؟

– أكونها مع زوجتي.

– حميدة؟

ليسوا أغبياء هؤلاء الأغنياء، أم ترانا نحن الأغبياء نحن المحبين؟

ولم أجد شيئًا أجيب به ذكاءها إلا ابتسامةً أفسحتُ لها مكانًا على شفتي.

– أبوها يحب المال.

– أعرف، ولكن لعل الحب يشفع لنا.

– الحب بينك وبينها هي، وليس بينك وبين أبيها.

– قد تضطره هي إلى القبول.

– وترضى أن تتزوجها رغم معارضة أبيها؟

– إنني سأتزوجها هي.

– على كل حال سأدبر الأمر.

– وأعلم أنك قادرة على تدبيره.

* * *

– حاولتُ يا أمين بكل جهدي.

– ولم يقبل أبوها.

– طبعًا تعرف السبب.

– أنني فقير.

– قلتُ إني سأعطيك كل ما يلزمك.

– فلماذا اعترض؟

– قال إنه يريد شخصًا يعتمد على نفسه.

ابن الكلب! أستطيع أن أتزوجها رغم أنفه، بل أستطيع أن أتزوجها من غير زواج، وأجعل منه أضحوكةً بين الموظفين، بل أستطيع أن أشيع عنها الشائعات فلا ترى الزواج بعينيها، ولعلي أفعل، ولعلي أفعل.

وفجأة أحسستُ كأن ما أفكر فيه ينتقل إلى عينَي عمتي اللتين تنفذان إلى داخلي في نظرة صفرية مخيفة.

– لا يا أمين.

– لا ماذا؟

– أرى في عينيك وميضًا فظيعًا، أتراه نفس الوميض الذي انبعث منهما يوم أحرقتَ السطح؟

– عمتي.

– الانتقام في هذه المرة سيصيبك كما سيصيب حميدة وأهل حميدة.

– يصيبني.

– ألا تقول إنك تحبها؟

– الحب لا يكون من جانب واحد.

– وماذا تريدها أن تفعل؟

– تقنع أباها، انتهى زمان عبودية الآباء لأبنائهم.

– وتعيش عمرها محرومةً من عطف الأب والأم؟

– سيصفحان.

– فإن لم؟

– سيصفحان.

– ألا تستطيع أن تفكر بعقلهما لحظةً، لحظةً؟

– لا أحد يموت من الجوع.

– أيرمي أب ابنته من أجل مثل هذه القاعدة؟

– فماذا تريدينني أن أفعل؟

– انتظر وكوِّن نفسك.

– وهل ستنتظر هي؟

– أنتَ لا تملك غير هذا.

– بل أملك الكثير.

– لا تقطع كل الحبال.

– فلتنقطع.

– ربما يأتي يوم ... ربما ... تستطيع فيه أن تتزوجها.

– وكيف ستنتظرني؟

– أنا لا أدري الغيب، ولكن لا تعترض القدر إذا حاولَ يومًا أن يعيدها إليك.

– وأسكت؟

– بل ساعد الأيام.

– ماذا أعمل؟

– حطم هذا السبب الذي منعك عنها.

– إن أباها لا يعرف كم أشقاني، وكم أشقى ابنته.

– أما أنت فلا تهمه في شيء، وأما ابنته فلعله يظن أنه يُعِدُّ لها السعادة.

– كانت حميدة أغلى أمنية في حياتي.

– لا ترغم الأيام يا أمين.

– لا عليك يا عمتي.

وخرجت وكان طبيعيًّا أن أذهب إلى هناء على غير موعد، نائمة هي طبعًا، لم أوقظها وانتظرت ببيتها. لأول مرة أحس أنني يجب أن أكون مع هناء. انتظرت،

وطال الانتظار. طلبت منزل حميدة؛ لم ترد، شيء طبيعي، ماذا يمكن أن أقول لها؟ لا بد أن هناك أشياء تقال، لقد اتفقنا أن تنتظرني حتى أنتهي من الدراسة، هل يمكن أن أطلب إليها أن تنتظرني حتى أصبح غنيًّا؟ لكن لا بد أن هناك شيئًا يقال. على كل حال إنه دورها هي أن تقول.

استيقظتْ هناء أخيرًا، وقضينا اليوم معًا. وانصرفتُ في أوائل الليل عائدًا إلى البيت، استقبلني صالح السائق، وأخبرني أن البيه يريدني. هيه يا عم أمين، علام نويت؟

وظننت أنه يكلمني في شأن الخِطبة، ودُهشت؟ فهذا موضوع لا يجوز له أن يخوض فيه.

– فيمَ يا عمي؟

– في حياتك.

– لم أفكر بعد.

– ولكن أنا فكرت لك.

– ماذا؟

– عندي لك عملان تختار بينهما.

إنهما يصران أن أظل ملكية خاصةً لهما، ولكن ما الناس ما دمت أستطيع التخلص وقتما أشاء.

– ألف شكر.

– عندي لك عمل في شركة كبيرة بمرتب أربعين جنيهًا في الشهر. ماذا يظنني هذا الكلب؟ ما أربعون جنيهًا؟ إنها لا تكفي بنزينًا لسيارتي، ولكن المرتب في نظره لا بأس به، طبعًا بالنسبة لتلميذ فقير لم يكد يتخرج. وتذكرت هناء، ثم لم أجب.

– وعندي لك عمل مع محاسب كبير، إذا عملت معه بجد تصبح أرباحك لا حد لها.

– من؟

– مكتب سامي أحمد.

– إنه مكتب شهير.

– ما رأيك؟

– اعمل معه.

– ألا تسأل أباك؟

أبي؟! وما شأن أبي بي؟ ومتى كان لي به شأن؟ إنما قصاراي أن نجحت، وأنني أعمل، وسيظل يعطيني العشرين ملطوشًا التي لا تزيد، ثم لا شأن له بي بعد ذلك، ويُطَمْئِنُ نفسه أنه شارك بفدانين في شراء سيارتي، وكأنه اشترى لي عمارةً. أبي؟! وما شأن أبي؟

– لا، لا داعي للسؤال.

– رأيك.

مكتب سامي أحمد يقع في شارع شريف قريبًا من التقائه بشارع ثروت، وسامي أحمد رجل يقارب الخمسين من عمره يعرف كيف يكون رقيقًا مهذبًا، ويعرف أيضًا كيف يكون عنيفًا إذا اقتضى أمرٌ أن يكون عنيفًا.

ولم يكن لقائيَ الأول به محتاجًا أن يكون رقيقًا ولا أن يكون عنيفًا، فهو لا شك قدَّر أنني سأعمل في مكتبه، فالإفراط في الرقة لا داعي له.

– هذا أول عمل لك يا أستاذ أمين.

– نعم.

– أنا لا أدعي شيئًا لا يمثل الحقيقة، ولكن لا بد أن تعلم أن أحسن المحاسبين في البلد تخرجوا في هذا المكتب، ولو عملت بنصائحي فلن يمر وقت كبير حتى تصبح قادرًا على فتح مكتب محترم.

– العمل مع سيادتك في ذاته شرف.

إن الذين تربَوا في بيوت غير بيوت آبائهم يتقنون أن يصنعوا كلامًا مزخرفًا يلقي بالزهو في نفس الآخرين، وقد كدت أرى صدره وهو ينشرح لهذا الحديث مني، ووثبتْ ابتسامة إلى شفتيه، وهبتْ عليه نسائمُ ورِقةٌ كانت غائبةً عنه.

– اعتبرني كوالدك.

أعوذ بالله، ولو علم ماذا يعني أبي عندي لما قال ما يقول، ولكن على كل حال ليس من المرغوب فيه أن يعرف كل إنسان، وخاصةً سامي أحمد، ما أُكِنُّه لأبي من مشاعر.

– في اللحظة التي رأيت فيها سعادتك ثبت في نفسي أنك والد.

– يعمل معي في المكتب شاب ... (ثم اجتزأ ضحكةً) ولو أنه عجوز بالنسبة لك، هو الأستاذ فتحي عبد التواب، وآنسة متخرجة منذ سنتين هي الآنسة نيفين السيد، سأعرفك بها الآن.

– أهما اثنان فقط؟

– يا بني، المكتب لا يحتمل أكثر من اثنين أو ثلاثة، فقد أصبحتُ أرفض الأعمال الصغيرة لأترك فرصةً لأولادي الذين تخرجوا عندي، وأصبح المكتب مقصورًا على الزبائن الكبار، وهؤلاء يكفيهم اثنان أو ثلاثة على الأكثر.

كان قد ضرب الجرس وهو يتكلم، وحين جاء الفَرَّاش كان قد أنهى حديثه، التفتُّ إلى الفراش، ثم التفتَ إليه: عم مدبولي الفراش، زاملني منذ فتحت هذا المكتب، هو عندي منذ عشرين سنة. الأستاذ أمين يا عم مدبولي، خل بالك منه.

قال عم مدبولي: ليس لنا بركة إلا هو.

بمثل هذه التمثيليات القصيرة يضحك هؤلاء الأباطرة على هؤلاء البسطاء. عشرون عامًا امتص فيها دماء الرجل العجوز ويباهي بهذا، أما كان الأولى بهذا الرجل أن يستريح وينال معاشًا من هذا المحاسب الجشع.

قبل أن يدخل الزميلان وجدتُ سامي أحمد يقول فجأةً وبلا مقدمات: إن جمالك شيء لا يمكن السكوت عليه.

وخجلت بعض الشيء، وأكمل هو حديثه غير عابئ بخجلي: لا تستعمله مع نيفين.

– يا أفندم العفو.

– ولا تشجعها إن حاولتْ هي الانتفاع بهذا الجمال.

– يا أفندم العفو.

– أنا أراها جميلةً، ولكن مقاييس الشباب في الجمال تختلف تمامًا عن نظرتنا نحن أبناء الخمسين.

– أنا يا سعادة البك ...

وقبل أن أكمل دخل إلى الحجرة الزميلان، أما نيفين فهي فتاة يمكن أن يراها بعضهم جميلةً، بل يمكن أن أراها أنا أيضًا جميلة، ولكن الواقع أن أفكاري عن الجمال أصبحتْ لا تتصل في كثيرٍ أو قليلٍ بجمال الوجه وحسن القَوام.

أما فتحي، فشاب في الثلاثين من عمره يبدو عليه الجِد.

تعارف ثلاثتنا، ولم أستطع أن أتغاضى عن نظرة فيها نوع من الانبهار شعت من عينَي نيفين.

الفصل السابع

كنتُ في البيت — بيت عمتي — حين دق جرس التليفون وبحركة لا واعية أمسكت السماعة: هل بجانبك أحد؟

– من؟

– ألا تعرفني؟

– حميدة؟

– أريد أن أراكَ.

– حاولتُ المستحيل لأراكِ، أين أنتِ؟

– في العزبة.

– أين؟

– في القناطر.

– أجيء فورًا.

– تعال.

– صِفي ليَ الطريق.

* * *

– علامَ انتويتِ؟

– ماذا تنوي أنتَ أن تفعل؟

– ما شئتِ.

– أنا مستعدة أن أفعل ما تشاء.

– نتزوج.

– نتزوج.

وقبل أن أعيد العرض فكرتُ، بماذا سنعيش؟ إن عمتي لا شك ستقطع عني كل معونة، ولا أستطيع أن أفرض إقامتي على أبي، إذا كان لم يستطع أن يبقيَني وحدي في بيته، فكيف يبقيني وأنا مع زوجتي؟ وكأنما قرأتْ حميدة كل ما يدور في رأسي: تفكر؟!

– أليس طبيعيًّا أن أفكر؟

– هل مع الحب تفكير؟

– مع الزواج لا بد من التفكير.

– أنا لا أريد أن أضيِّق عليك الطرق، ولكن لا بد أن نقرر فورًا.

– هل هناك جديد؟

– جاءني خاطب.

– متى؟

– لا يهم، المهم أن أبي وافق عليه.

– وأنتِ؟

– لو كنتُ وافقتُ ما ألقَوا بي إلى العزبة.

أَلَا تخشَين أن يخبر أحد أباك أنني جئت إلى هنا؟

– لم يعد يهمني.

– كيف؟

– واحدة من اثنتين: إما أن نتفق الآن على الزواج فورًا، وحينئذٍ سيعرف كل شيء، وإما لا نتفق وحينئذٍ سيجعله قَبولي الزواجَ من الخطيب الجديد يغفر لي كل شيء.

– ها، تفكرين في كل شيء!

– ماذا قررتَ؟

– هل إذا صممتُ على الزواج بك تحسِّين أني أحبك؟

– نعم.

– أتقدِّرين ما سنلاقيه من عقبات؟

– المال؟

– أليس شيئًا مهمًّا؟

– لقد نلتَ البكالوريوس وستعمل.

– لقد عملت فعلًا.

– أين؟

– لا يهم، وإنما المهم أننا إذا تزوجنا سأفقد وظيفتي الجديدة.

– كيف؟

– عمي زكريا هو الذي عيَّنني.

– عمك زكريا لن يفكر في طلب رفتك.

– إنني ملكية خاصة له ولزوجته.

– أنا معي الليسانس أيضًا وسأعمل.

– فإذا عمل كلانا أتظنين أننا سنستطيع العيش؟

– أنتَ تفكر؟

– لي ولكِ.

– نتزوج ثم نفكر.

– إذا تزوجنا فلا داعي للتفكير.

– ما زلتَ تفكر؟

– وأين سنقيم؟

وصمتتْ فجأةً، وأطلَّت من عينيها دمعتان تحدرتا على وجهها، ولم أملك نفسي: حميدة سنتزوج.

– إننا سجناء ندَّعي الحرية.

– سنتزوج.

– الآن، لا يمكن، ربما كان ذلك ميسورًا منذ دقائق قبل أن تفكر وتجعلني أفكر.

وافترسني فجأةً صمت صاخب ثائر يتلوَّى في كِياني، فلا أجد له فسحةً ليدمر العالم حولي، ولا أطيق أن أكتمه فيدمرني، ورحت أدق يد الكرسيِّ دقًّا مجنونًا لا معنى له، كأنما بيدي قيد وأريد أن أحطمه. وفي هدوء المقبل على المِقصلة قالت حميدة: سأتزوج هذا الخاطب.

– أرأيتِه؟

– أكرهه.

– لعلكِ فقط لا تريدينه.

– أكرهه.

– أقبيح هو؟

– لقد رسمه الله في الصورة التي أكرهها، لو لم أكن رأيته وطلب مني أحد أن أرسم صورةً لرجلٍ أكرهه لكانت صورته.

– لعله طيب.

– أطيب هذا الذي يتزوج فتاةً لأن أباها وكيل وزارة دون أن يهتم إن كانت ترضى به أم لا؟

– لعله يرجو أن تحبيه بعد ذلك.

– فإن لم؟

– يحاول أن يجرب.

– ويستلب حياتي لتكون أداةَ تجربته؟

– لعلنا نستطيع أن نلتقي بعد الزواج.

ونظرت إليَّ في لومٍ شديد وأسًى: أترضى لي هذا؟!

– إني أحبكِ.

– أهكذا تحبني؟ أهذا هو نوع الحب الذي جَمع بيننا؟

– فكيف أعرف أخبارك؟

– ألهذا فكرت أن تلقاني؟

خذلتْني نفسي وهي التي تعودتِ الكذب، لم أستطع أمام طهرها أن أجيب بنعمٍ حاسمة تزيل ما أثرتُه في نفسها من لوم، تلعثمتُ وتردد لساني وأنا أقول: نعم.

– لا، لم يكن هذا ما أردت، سأغفر لك ما فكرتَ فيه؛ لأنك في موقفٍ لا يسمح لي بلومك.

– أريد أن أعرف أخبارَكِ.

– اكتب لي رقم تليفونك في العمل.

وحين أعطيتها الرقم قالتْ في حسم: سيكون التليفون هو الصلة الوحيدة بينك وبيني.

– ولا أراكِ؟

– ما دمتُ زوجةً لغيرك، فلن تراني.

– حتى لحظات، رؤية بريئة؟

– إن مجرد لقائي بك لا براءة فيه.

– إذن فالتليفون فقط.

– لا بد لي أن أعرف أخبارَكَ.

– وأنا لا بد أن أعرف أخبارَكِ.

– أنا أعرف أنكَ ستنجح.

– كيف عرفتِ؟

– أرى في عينيك إصرارًا على النجاح.

– سأنجح.

– ولكن احذر طريق النجاح.

– سأنجح من أي طريق.

– فقط لا تبع نفسك من أجل النجاح.

– لا بد أن يعرف أهلكِ أنني قادر على الغنى.

– الطريق إلى الغنى أهم من الغنى نفسه.

– كلام أغنياء لا أثق فيه.

– ألا يهمكَ طريقكَ إلى المال؟

– الآن يهمني المال فقط.

– أمين، يخيل إليَّ أنك دائمًا يهمك أن تصل ولا يهمك الطريق التي تؤدي بك إلى الوصول.

– ومع ذلك تحبينني.

– هذا قَدَري، أعرف عيوبكَ كلَّها، ومع ذلك أحبكَ.

– سنلتقي.

– بالتليفون.

– بل سنلتقي.

– إياكَ.

– وبرضائكِ.

– متى؟

– هذا هو الشيء الوحيد الذي لا أعرفه، لن أقول وداعًا.

– أما أنا فأقولها، وداعًا يا أمين.

– إلى اللقاء يا حميدة، إلى اللقاء.

الفصل الثامن

حاصرتْني نيفين في العمل، وكنتُ أنا راغبًا عنها تمامًا، فقد كانت هناء تكفيني مهمة البحث عن أخريات، وكان أملي في ذلك الحين أن أتقن أسرار المحاسبة لعلي أستطيع أن أصل إلى الثروة التي أصبحتْ كل ما أفكر فيه؛ ولهذا وطَّدتُ صلتي بفتحي، حتى لا يُخفي عني شيئًا من أسرار العمل، ولكن محاولة تباعدي عن نيفين لم يزدها إلا إصرارًا.

وما البأس؟ وماذا يحدث إذا توطدتْ صلتي بها هي أيضًا ما دامتْ في ذلك تصر أن تنتظر حتى أنزل لتركب معي السيارة، وتصر في كل حديثٍ لها أن تربط بيني وبينها، وأنا لم أعد غِرًّا؟ فإذا كنتُ قد بدأتُ مغامرتي مع راقصة، فلا بد أنني كسبتُ خبرةً عريضةً. إن نيفين من النوع الواقعي الذي يصل إلى هدفه في أقرب طريق. لم يمر على توصيلي لها أكثر من شهر، وإذا هي: ماذا ستفعل اليوم؟

– أبدًا، لا شيء.

– ولماذا لا نخرج معًا؟

– إلى أين نذهب؟

– لا شأن لك.

– متى نلتقي؟

– في السادسة.

– أجيء إليكِ؟

– ستجدني بالباب.

نوع جديد عليَّ، لقد عرفتُ وصفية وقادتْ خطواتي الأولى نحو الشباب، وعرفت حميدة فأشعلتْ في القلب وجيبًا، وكلما حاول الجسم أن يشتعل أطفأتْه، وأعادتْني أمامها ملاكًا كل مشاعره قلب واجف ملهوف، وعرفت هناء، فعرفتُ المرأة في القمة العليا من أنوثتها ونضجها. نيفين نوع جديد بالنسبة إليَّ، سيدة متعلمة لا تعمل بالرقص، وواضح أن مسألة القلب عندها ليست هي كل العلاقة التي يمكن أن تقوم بين رجل وامرأة، كنتُ أمام بيتها في السادسة كما طلبتْ. إلى أين؟

– هل معكَ نقود؟

– بالقدر المعقول.

– فأنا أدعوكَ.

– علام؟

– لا شأن لكَ، مل يمينًا في الشارع المقبل، قف عند البقال.

– بقال؟

– يا أخي أنت ما لك؟

– أمركِ.

نزلتْ وعادتْ بكيسٍ كبيرٍ وضعتْه على المقعد الخلفي، وركبتْ إلى جانبي: اذهب إلى الدقي.

وما زالت تميل بي يمنةً ويسرةً، حتى وقفنا أمام عمارة أنيقة ونزلنا، وما هي إلا درجات قليلة، حتى وقفنا أمام شقة أخرجتْ مفتاحها ودخلنا، وما إن أقفلتِ الباب حتى صحت: يا نهار أسود من الحبر، شقة خاصة لك؟!

– فشرت اخرس.

– أخرس؟! فما هذه إذن؟

– شقة أختي.

– أختك؟!

– نعم.

– وأختكِ؟

– في الكويت.

– والمفتاح؟

– لأنظفها.

– ولماذا لا تؤجرها؟

– تخشى أن يُنقَل زوجها في أي وقت، وليس في بيتنا مكان لهما، ثم هما في غير حاجةٍ إلى قيمة إيجارها.

– معقول؟

– اجلس.

كان بالكيس زجاجة ويسكي، وما يحتاج إليه الويسكي ... واضح أن الآنسة نيفين ذات تجارب واسعة.

شربنا وذهبنا إلى حجرة النوم.

إن الآنسة نيفين ليست آنسة.

حين جلسنا في البهو نظرتْ إليَّ طويلًا: أنتَ مندهش.

– أنتِ ما زلتِ صغيرةً.

– أبي موظف ومرتبه بسيط، وبنات اللصوص في الجامعة يلبسن أفخر الملابس، لا بد أن أكون مثلهن.

– والزواج؟

وضحكتْ ضحكةً ساخرةً.

– ماذا جرى يا أستاذ؟ هناك ألف طريقة لإعادة الأمور إلى نصابها.

واضح جدًّا أن معلوماتي قاصرة، لقد كنتُ أحسب أن صلتي بهناء تتيح لي أن أكون عالمًا في هذا الميدان.

وما لبثتُ أن تبينتُ كم أنا جاهل!

* * *

طلبتُ من فتحي أن يخرج معي نوصل نيفين ونتناول الغداء معًا، فوافق.

وعلى الغداء: فتحي، قل لي، ألم تذهب في حياتك إلى كباريه؟

– يا أمين يا أخي، أنا دائمًا أحافظ على الفرض، وحتى لو فكرتُ في الذهاب على سبيل التعرف لما أسعفتْني المادة، فقد زوجني أبي قبل أن تظهر نتيجة البكالوريوس، وأصبح عندي — والعين لك — ولد وبنت.

– ولكن لا بد أن ترى.

– الإنسان لا يستطيع أن يرى كل شيء في الحياة.

– أتذهب معي؟

– متى؟

– الليلة.

– الليلة الخميس الأول في الشهر.

– وما له؟

– ليلة أم كلثوم.

– تسمعها في البيت مع الأولاد.

– ستدهش لو عرفتَ أين أسمعها.

– أين؟

– أتأتي أنتَ معي؟

– لا بأس، أنا على موعد أعتذر عنه، وأجيء معك.

– اتفقنا.

ذهبتُ إلى بيت هناء، فقضيتُ القيلولة عندها، واعتذرتُ لها عن لقاء المساء، وعجبتْ هي فقد كنا تعودنا أن نسمع أم كلثوم معًا، وثالثتنا زجاجة الويسكي أو الكونياك أو ما تيسر، ولكنها حين عرفتْ أنني سأكون مع فتحي الذي تعلم أنني حريص على توطيد صلتي به، زال منها العجب.

التقيت بفتحي وفي ظني أنه سيأخذ بي إلى جمع من المتصوفة يسمعون أم كلثوم في وقار العلماء وثباتهم، ولكن، كم أخلف فتحي ظني! اشترى فتحي بسبوسةً، وذهبنا إلى شقة في العباسية تقع على السطح من عمارتها، ووجدنا أمام الشقة مراتب مفروشة، ودق فتحي الجرس، وظهر على الباب رجل في مثل سنه مرتديًا جلبابًا أبيض ناصعًا وطاقيةً. أهلًا وسهلًا، تفضلا.

– أمين سليم، زميلي في المكتب.

– أهلًا وسهلًا.

– عبد الحميد جاد الله، صديقي ومفتش حسابات بوزارة الداخلية.

– أهلًا وسهلًا.

ودخلنا وقال فتحي: نحن أول من جاء.

– إنهم في الطريق.

ونظرتُ إلى عبد الحميد مليًّا؛ في الثلاثين من عمره، هادئ، في عينيه ذكاء لم يمنعه من الظهور هذه الهضاب التي تكونت حول عينيه.

– يا ترى ماذا ستغني الست الليلة؟

– كل شيء منها جميل.

ومضى بنا الحديث، وتقاطر الأصدقاء؛ منهم من هو زميل متخرج في كلية التجارة، ومنهم غير زميل. هم أربعة نفر غير فتحي وعبد الحميد، اثنان منهما زملاء دراسة لهما، وأما الآخران فأحدهما فرَّان، والآخر بائع في محلات القطاع العام.

وقبل أن يبدأ الغناء بدءوا هم عملهم، وأخرجت الجوزة من داخل البيت، ومعها لوازمها جميعًا، وكان كل ضيفٍ منهم قد جاء بصنفٍ من الطعام، فإذا المائدة عامرة، ولكن أحدًا لا يمد يده إليها، لقد تحولوا جميعًا إلى أنفاس. العجيب أن فتحي لا يشاركهم مطلقًا، أما أنا فقد شاركتُهم، وما زلتُ أذكر أول نفس اجتذبته، نوع من المخدر بعيدٌ كل البعد عن نشوة الخمر، ومع ذلك ومع تكرار الأنفاس تحولتُ إلى شيءٍ منقطعٍ عن الزمان والمكان، بعيدٍ عن المشاكل وعن الأفراح، سابحٍ في لا نهائية، فلا أنا في أرض ولا أنا في سماء، وإنما أنا هباءة ليست بعيدةً عن الأرض، وليست قريبةً من السماء، ومع الناس أنا ولست معهم، أذكر ما أذكر من حياتي وكأنه لم يقع، وأفكر في مستقبلي وكأنه مستقبل الآخرين، أتحدث فكأنما أسمع حديثًا لإنسان غيري، وأسمع فكأنما أذني ليست أذني، بل كأن الشهيق والزفير مني يقوم به عني شخص آخر لم ألتق به، ولم أعرفه قبل اليوم، ولا يعنيني أن أعرفه، ولا أريد أن أبحث عن شأنه. وغنت أم كلثوم، فكأنما صوتها الذي كنتُ أعرفه يأتي اليوم من مكانٍ سحيقٍ لا يعنيني مصدره، وإنما كل ما يعنيني منه هذه النشوة التي أحسها، أو التي يحسها ذلك الإنسان الذي يقوم عني بالشهيق والزفير.

* * *

في الصباح سألتُ فتحي: لماذا لا تشارك؟

– لم تعجبني المشاركة.

– فلماذا تذهب؟

– تعجبني القعدة.

– لك حق.

– أتأتي معي كل شهر؟

– كل شهر وأشارك في النفقات.

– هذه الجلسة هي تسليتي الوحيدة، وثمن البسبوسة هو كل نفقاتي الخاصة.

– لماذا لا تفتح مكتبًا مستقلًّا؟

– ليس بعد، من يدري؟ ربما فتحنا معًا.

– من يدري؟ ربما، من يدري؟

الفصل التاسع

كنتُ في مكتبي حين حولتْ إليَّ عاملة التليفون مكالمةً. من؟

– صباح الخير.

– حميدة.

– اليوم سأتزوج.

– أعوذ بالله.

– لا بد أن تعرف.

– وافقتِ؟

– ألم نتفق؟

– اليوم؟

– اليوم.

– هل يمكن أن أراكِ؟

– هل جننتَ؟

– هل تشكين في ذلك؟

– أتسافرين؟

– نعم.

– إلى الخارج؟

– إلى الإسكندرية.

– كم ستمكثين هناك؟

– أسبوعين.

– هل في بيت زو... في بيتك تليفون؟

– أنا التي سأطلبك.

– ما اسم زوجك؟

– هل يهمك أن تعرف؟

– كل الأهمية.

– حمدي إسماعيل.

– في أي درجةٍ هو؟

– ما هذا التحقيق؟

– لا بد أن أعرف كل شيء.

– في الدرجة الثالثة، ومرشح للثانية، وعنده عزبة.

– فهو كبير في السن.

– في الثلاثين.

– أكبر منك بكثير.

– مع السلامة يا أمين.

– كلميني مجرد عودتك، ولو اقتضى الأمر أن تكلميني أمامه.

– مع السلامة.

– مع السلامة، حافظي على صحتك، إن تضايقت اطلبيني، وسأفعل كل ما يرضيك مهما تكون العقبات.

– حافظ على صحتك.

– لم يعد لها لزوم.

– من أجلي.

– ألم تقولي وداعًا؟

– ولكنك قلت إلى اللقاء، حافظ على صحتك من أجلي، مع السلامة. وأقفلت.

لم أستطع أن أمنع دمعتين تسللتا إلى عينيَّ على غفلةٍ مني، وتركتُ ما كنتُ أعمل فيه، وجلستُ صامتًا يشتعل داخلي بالغيظ والثورة، أيستطيع المال أن يتسيَّد حياة الناس إلى هذا الحد؟ أكلُّ ما يمنعني عن حميدة هو هذا المال؟ أكان لا بد لي أن تكون عندي عزبة، ألا يغني شبابي عنها؟

جاء عم مدبولي.

– البك يطلبك.

كدت ألعن أباه وأبا البك جميعًا، ولكني سكتُّ، ولم أنظر إليه، وكأني لم أسمع. ولم أدرِ كم من الوقت مر حين دق جرس التليفون بجانبي، فانتفضتُ مذعورًا، فقد كنتُ بعيدًا كل البعد عن واقعي. ورفعتُ السماعة في لهفةٍ لعلها هي مرةً أخرى. لم تكن هي.

– أمين؟

– نعم.

– أنا سامي، لماذا لم تأت؟

– نعم ... آه حاضر ... حالًا.

– وقفتُ لأرى فيما يريدني.

حين دخلتُ المكتب وجدتُ سيدةً جالسةً أمامه، وفي يدها مبسم في داخله سيجارة. السيدة أنيقة بصورة لا بد أن تبهر من يراها، وأناقتها تجعلها جميلةً بدون وجه حق، وعلى أية حال إن الذي يواجهها لا يملك إلا أن ينعم النظر فيها، وأغلب الأمر سيعتبرها جميلةً.

– شهيرة هانم الهليلي، صاحبة محلات الشوا.

– أهلًا وسهلًا.

– أمين سليم، زميلنا في المكتب.

ولمحتُ في عينيها نظرة إعجاب وهي ترمقني.

– أهلًا وسهلًا.

– شهيرة هانم تريدنا أن نُشرِف على حسابها.

– تحت أمرها.

– تذهب إليها وتنظم الدفاتر.

– تحت أمرك يا أفندم.

* * *

كنتُ عندها في الغد، المحل غاية في الأناقة، عندها كاتب حسابات، ولكن يبدو عليه أنه متخرج من مكاتب الدوائر الزراعية، فطريقته في إمساك الدفاتر لا تتفق مع المَحالِّ التجارية.

شهيرة هانم لم تُخفِ إعجابها بي، وقد ظهر لي من النظرة الأولى لحسابات المحل أن حالتها المالية رائعة.

رأيت أمامي فرصةَ تستحق أن أمعن فيها النظر. شهيرة هانم مجرد زيارة أو اثنتين لا تكفي.

– أنا لم أقل زيارة أو اثنتين.

– أنا سأضع نظامًا جديدًا للأستاذ عبد التواب، وسأداوم على الزيارة إلى أن أَطمئن على سير العمل.

– ما هذا الكلام الفارغ؟ أنت تظل تأتي دائمًا، أنا أريد حساباتي أن تكون في أيدٍ خبيرة.

– البركة في الأستاذ عبد التواب.

– وما البأس، الأستاذ عبد التواب مستمر في عمله، وأنت تأتي دائمًا.

* * *

توثقتْ صلتي بشهيرة هانم، فأصبحت تطلب مني أن أؤدي لها خدمات في الحكومة أو الجمارك، وكانت تمنحني مكافآة خيالية مقابل كل عمل أقوم به.

وفي يومٍ طلبت إليَّ أن أسافر إلى الإسكندرية؛ لأخلص لها بضائع في الجمرك، وأديت المهمةَ في نجاحٍ تام، وحين عدتُ طلبتها في بيتها، وقبل أن أشرح لها ما فعلته: تعال.

– إلى أين؟

– إلى البيت.

شقة فاخرة بالزمالك، وأثاث غاية في الأناقة، وكانت هي كعادتها في اختيار أجمل الملابس.

– أتعبتك معي كثيرًا.

– أحب هذا التعب.

– هكذا الوحدة في الدنيا.

– يعقل أن يكون هذا الجمال وحيدًا.

– زوجي مات بعد الزواج بسنةٍ وبضعة أشهر.

– محلات شوا كانت ملك زوجك؟

– أبدًا، أنا التي فتحتها، حتى أشغل نفسي.

– الحقيقة يا شهيرة هانم.

– اشطب هانم.

– أنا أعمل عندكِ.

– أليس عندكم في الحسابات شيء اسمه الشطب؟

– أتعرفينه؟

– فأنا آمرك أن تشطب هانم.

– شطبناها، الحقيقة أنني أراك صغيرةً على كل هذا الجهد.

– تستطيعين أن تتمتعي بوقتك، أنا أعتقد أن حالتك المالية ...

– لا، من هذه الناحية الحمد لله.

– المحل نفسه لو بعتِه ...

– لا، لا ومن غير بيع المحل.

– كيف؟

– أنا عندي عمارة حديثة، وأتفاوض في شراء أخرى، من هذه الناحية لا ...

– إذن فلماذا تعملين؟

– المؤكد أنني لا أعمل للربح.

– وهل هذا معقول؟

– لو كنتَ وحيدًا مثلي لعرفتَ أن هذا معقول جدًّا.

– ومن أدراكِ أنني ليست وحيدًا؟

– من عرف الوحدة يعرف زملاءه.

– لي أقارب وأصدقاء، ولكني مع ذلك وحيد.

– إذن فحالك كحالي.

– الوحدة يشعر بها الإنسان في داخل نفسه.

– أتشعر بها؟

– وأنا مع أصدقائي أو أقاربي دائمًا أشعر بوحدة.

– كأنك تتكلم عني.

– عجيبة!

– وما العجيبة؟

– أنا الآن فقط لا أشعر بالوحدة.

– حقًّا؟

– إنني أبحث عن وحدتي في داخلي فلا أجدها.

– أتعني ما تقول؟

– أول مرة نتحدث في غير العمل، تجعلين من الوحيد المزمن شخصًا يشعر أن الدنيا جميعًا أهله وأصدقاؤه.

– العجيب أنني أيضًا شعرت بهذا الشعور وأنا أتحدث إليكَ.

– إذن فلماذا نشعر بالوحدة؟

– ماذا تقصد؟

– ألم تفهمي؟

– الذي فهمتُه غير معقول.

– بل أعتقد أنه هو المعقول.

– أنا أكبر منكَ.

– بسنتين أو ثلاث.

– بل بأكثر من هذا.

– تبدين لي أصغر مني.

– هذا لا يغير الحقيقة.

– الحقيقة الوحيدة هي التي أشعر بها أنا وتشعرين بها أنت.

– لعل جِلستنا وتكاشفنا خلقتْ جوًّا من التقارب بيننا ليس من الطبيعي أن نبنيَ عليه حياتنا كلها.

– ما دمنا تكاشفنا وتقاربنا، فمن الطبيعي أن نظل متقاربين.

– فكر في الأمر.

– أنا لا أحتاج إلى تفكير.

– إذن فأنا أحتاج إلى تفكير.

– أمركِ.

الفصل العاشر

كان محل شوا هو هدية زواجنا، باعته لي وسجلته دون أن أدفع مليمًا واحدًا من ثمنه، ومع هذا كانت عمتي غاضبةً عليَّ، الآن لم يعد يهمني غضبها أو رضاها. حاولتْ هي وعمي بكل جهدهما ألا أتم هذا الزواج، فلم ألقِ إليها أو إليه بالًا، إنهما لا يريدان أحدًا يكون غنيًّا مثلهما، وحين حاول أبي أن ينصحني رأى في عيني أنني لا أدين له بشيءٍ، فكانت محاولته واهيةً هينةً.

أما وصفية فقد فكرتُ أن تنتقل إلى بيتيَ الجديد مع شهيرة، ثم ما لبثتُ أن تبينتُ أن وضعها هناك لن يكون مريحًا، إلى جانب أن صلاتها بصالح السائق قد توطدتْ، ولعلها كانت مقدمةً على الزواج منه، وقد فهمتُ منها أنها تعرف حاضنةً ستمكنها أن تُزف إلى عريسها، ويتم الزواج وهو يعتقد أن زوجته غاية في الشرف والعفة.

موقف هناء هو الذي أدهشني فعلًا. ستتزوج؟

– نعم.

– ألم يكن من الطبيعي أن تخبرني وأنت في الخطوات الأولى؟

– المسألة جاءت فجأة.

– فجأةً يا أمين، ألمثلي تقول هذا الكلام؟ لقد نويتَ الزواج من شهيرة منذ أول يومٍ رأيتها.

– أبدًا وشرفي.

– أمين فتح عينيك، أنا هناء.

– أنت زعلانة؟

– أنت مغفل. هل ظننتَ يوم عرفتكَ أنني أنوي الزواج بكَ؟

– لعلكِ فكرتِ أنني لن أتزوج.

– يا مغفل، إن الرجال هم حرفتي، أنا أعلم أنك ستتزوج منذ أول يومٍ قبلتك فيه.

– والآن؟

– متى ستتزوج؟

– الخميس القادم.

– طبعًا عمتك غاضبة عليك.

– كيف عرفتِ؟

– العروس أكبر منك، والمال ليس مشكلةً في نظر عمتك.

– لعلها تريدني أن أظل محتاجًا إليها.

– ربما أيضًا. المهم، أنت مفلس كالعادة؟

– يعني.

– خذ هذا المبلغ، وأنفق منه أمام عروسك.

– هناء، هذا غير معقول.

– يا مغفل، هذا هو المعقول، لا تظهر جشعك منذ اللحظة الأولى، إن احتجتَ لأكثر قل لي ولا تقل لها.

– أتدعو لي لأنكَ تحبني؟

– طبعًا.

– كذاب، إنه أنا التي أحبك، أما أنت فلا تعرف الحب.

– أنا لا أعرف الحب؟

– صعب عليك.

– تظلمينني.

– أمين، أنت الذي تظلم نفسك دائمًا.

وحين خرجتُ من بيتها وجدتها قد أعطتني مائتي جنيه كنتُ في أشد الحاجة إليها لأنفق على خروجي مع شهيرة.

* * *

حين تم الزواج لم أفكر أن أترك مكتب المحاسبة رغم أن المحل يستطيع أن يشغل وقتي جميعًا. ولم يعد المرتب الذي أصيبه من المكتب ذا قيمة بالنسبة لي، ولكني مضطر أن أبقى حتى تكلمني حميدة.

كان قد مر على آخر مكالمة شهران، وهي لم تتصل بي، وخشيتُ أن أترك المكتب، فلا تعرف لي مكانًا تلتمسني فيه.

وحين مر من الشهر الثالث يومان. كيف أنتَ؟

– متى جئتِ؟

– أمس.

– أكل هذا شهر عسل؟!

– أحسَّ أنني لا أحبه، فسافرنا إلى أوروبا.

– وأحببتِه؟

– الحقيقة أنه يعاملني معاملةً غايةً في الرقة.

– إذن فقد أحببتِه.

– إني أكلمكَ في التليفون.

– أهذا يكفي؟

– يكفي لأن تعرف مشاعري.

– حميدة أتعرفين كم أحبكِ؟

– بل أعرف كم أحبكَ.

– لقد تزوجتُ.

– ماذا؟!

– وأصبحتُ اليوم غنيًّا.

– ماذا؟!

ورويت لها كل شيء، لم أخفِ شيئًا، وعرفتْ تليفون عملي وبيتي. لقد أحستْ أن زواجي لا صلة له بحبي لها.

* * *

تفرغتُ تمامًا لمحل الشوا، وعرفتُ كيف يكون الغنى، شعور يلقي إلى القلب خَدَرًا هانئًا، لا يضايقني شيء إلا طمع الفقراء، عبد التواب وعمال المحل لا يكفون عن طلب العلاوات والمكافآت. إن هؤلاء الفقراء يتمتعون بنوعٍ من السعار إلى المال، ولا يكفيهم شيء، ولا يشكرون أبدًا، ويتمنَّون دائمًا أن يخربوا الأغنياء ليحصلوا على أموالهم، إنهم قوم خاملون يريدون المال أن يأتيَ إليهم ساعيًا وهم خامدون لا يسعَون لنيله، وهم سفلة، يستطيعون دائمًا أن يضعوا على ألسنتهم المديح للأغنياء والدعاء لهم في نفاقٍ مَقيت، وإنني واثق كيف يذكرونني في همهم بالسخرية والنِّكات التي لا يملكون غيرها، ولا يُجهدون أنفسهم إلا في تأليفها وإطلاقها وروايتها. كم هم منحطون هؤلاء الفقراء، لا يعرفون كيف يصلون إلى المال، ويحقدون على كل غني ذي

مواهب. ولقد أعلم أنهم يقولون عني أني بعتُ شبابي من أجل ثرائي، وأنني تزوجتُ ممن هي أكبر مني لأصل إلى ما وصلت إليه من غنًى. لو كانوا يملكون مواهبي أكانوا يتأخرون عن الإقدام على ما أقدمت عليه؟

ثم، ما هذا المجتمع؟ لماذا تواضع الناس فيه ألا يعيش الإنسان على نفقة زوجته؟ لا شأن لي هنا بما يقول به الدين، فالمجتمع لا يسير على أصول الدين في كل خطواته. إذن فما السبب أن أعيش على نفقة زوجتي؟ إنها صفقة مثل كل الصفقات، أقدم بها السعادة والشعور بأنها مرغوبة محبوبة، وتقدم ليَ المال. أي مالٍ يساوي لحظات السعادة التي أقدمها إليها؟

وما الهدف من هذه الحياة جمعاء؟ وفيمَ سعى هؤلاء الناس جميعًا؟ أليس كل ما تصبو إليه آمالهم لحظةَ سعادة يدفعون في سبيلها كل شيء؟ بل فيمَ ذهابي أنا إلى الشقة التي أخذني إليها فتحي؟ ألَا أحاول أن أحصل على لحظة سعادة؟ وفيمَ ذهابي إلى هناء؟ كل سعي الناس من أجل لحظة سعادة. وأنا أهب لزوجتي شهيرة لحظات ولحظات من السعادة، فما البأس أن تقدم ليَ المال؟ وأي هدًى أروع من هذه اللحظة؟ ماذا يستطيع المال أن يقدم لها أجمل وأبدع من هذه اللحظات التي أقدمها إليها؟

وعلى أية حال، فيمَ هذا الدفاع الطويل؟ كأني أشعر أنني مخطئ وأنني أحتاج إلى دفاع، لَكم أثر فينا مجتمعنا الجامد هذا، وأقام في نفوسنا ألوانًا من القيم كأنها أصنام لا يحطمها عقل أو منطق!

إنني سعيد بحياتي هذه، وليس يعنيني في شيءٍ ما يقوله الناس أجمعون. وفي آخر الأمر المال هو الذي يكسب دائمًا.

لم تقاطعني عمتي، بل كانت تزورني ويزورني معها في كثيرٍ من الأحيان عمي زكريا وأبي. عظيم أبي هذا، لقد أصبح صديقًا حميمًا لزوجتي، وكثيرًا ما رجعتُ إلى البيت فوجدته فيه. وشهيرة سعيدة غاية السعادة به، ولا تناديه إلا مثلما أناديه: بابا. وهو سعيد بندائها هذا، سعيد أيضًا بما يطبخه له الطاهي من أصناف الطعام، ولعله أكثر سعادة بأنني لم أعد أطلب منه مالًا، بل والأعجب من هذا جميعًا أنه في أحيانٍ

ليست قليلةَ يطلب هو إليَّ أن أسلفه. وهي سلف أعطيها وأعلم أنها لن تُرَد. مجرَّدٌ هذا المجتمع، فنحن مهما نحاول تحطيم قيوده يعتصرنا بقيمه ومُثله. إنني أرفض أن أعطي أي محتاج، ولكن أبي هو الإنسان الوحيد الذي لم أستطع أن أرفض طلبًا له. والعجيب أنني أشعر بشيءٍ من السعادة وأنا أعطيه، ولكن ألا يعرف أبي ما هذا المال الذي أعطيه له؟ ألا يعرف البضاعة التي أقدمها لأحصل على هذا المال؟ ألم يفكر أن هذا المال هو ثمن شبابي وأجمل فترات حياتي أقضيها مسفوحةً في رمال سيدة تكبرني تزوجت بها؛ لأنها غنية، وليس لأي سببٍ آخر. لعله يعلم ولعله لا يعلم، ولكن ماذا يهم ما دام يحصل على ما يريد من مال.

لم يكن شبابي وحده هو الذي أقدمه، ولكني أقدم كثيرًا من حريتي أيضًا، فشعورها بأنها تكبرني وبأني شاب وجميل يجعلها دائمًا تحيطني بنطاقٍ من الغَيرة ضيقٍ وعنيف. إن رأتني أكلم زبونةً بشيءٍ من التلطف، أو إن تأخرتُ خارج البيت تحاسبني محاسبةً دقيقةً، ولا رحمة فيها ولا إشفاق، ولكنها كانت تسمح لي أن أذهب إلى أصدقاء فتحي مرةً في الشهر، موهمةً نفسها أنها بذلك تهيئ لي نوعًا من الحرية، ولهذا كنتُ أختلس أوقات ذهابي إلى هناء اختلاسًا.

ولا أدري لماذا أبقيتُ على علاقتي بهناء، المؤكد أن حفاظي على هذه العلاقة لم يكن عن وفاء؛ فأنا أعتبر الوفاء نوعًا من الضعف الذي يُعيق الإنسان أن يصل إلى آماله التي يَنشدها لنفسه في الحياة، ولو بذلت هذا الوفاء لكل من قدم لي معروفًا لما بقي لي شيء من حياتي أقدمه لنفسي ولمستقبلي. ربما كان إبقائي على هذه العلاقة عادةً لا أرى داعيًا لقطعها، وربما كان محاولةً مني أن أشعر بأنني ما زلت حرًّا أستطيع أن أكون بعيدًا عن زوجتي، أختار ما يحلو لي أو ما أشاء من علاقات. الحقيقة أنني لم أحاول أن أفكر في أسباب محافظتي على صلتي بهناء، كل ما أدريه أنني لم أحاول أن أقطعَها، ولم أفكر في ذلك أيضًا.

* * *

كانت حميدة تتصل بي في المحل من حينٍ إلى آخر، وقد أحسستُ من أحاديثها أنها تحاول أن تقبلَ ما سارتْ إليه الأمور، ولكنَ محاولاتها تذهب سدًى. لم تستطع أن تحب زوجها، وهي تعلم أنني أيضًا لا أحب زوجتي، وأن كلينا يعيش حياةً فُرضتْ علينا. أما هي فقد فرض أبوها عليها حياتَها، وأما أنا فقد فرضتُ على نفسي الطَّمُوح حياتي، ولكن أيفيد هذا الآن؟ هي زوجة لغيري، وأنا بطبيعة الحال زوجٌ لغيرها، والمفروض أن حياة كل منا قد افترقتْ عن الأخرى، كلٌّ في طريق، ولكنها مع ذلك تكلمني وتعرف دقائق حياتي، وأعرف دقائق حياتها، فالطريقان وإن كانا شتى إلا أن بينهما وصلةً تبدو حينًا واهنةً هينةً، وتبدو أحيانًا وثيقةً عمليةً، حتى إذا أفاق كل منا إلى الحقيقة، عرف كم يبعد كل منا عن الآخر.

تقول لي إن أمها غاضبة؛ لأنها لم تحمل وتنجب طفلًا مع مرور سنواتٍ على الزواج، وأكاد أفهم أنها هي التي تمنع هذا الحمل أن يتم.

وحين طالعتْني حميدة بهذه الحقيقة جعلتْني أنا أيضًا أفكر أنني لم أنجب، وأن شهيرة لم تحمل، إلا أن أحدًا لم يثر معي هذا الأمر، ومن يثيره؟ أما أبي فلا يهمه إلا أن يجد المال بين يدي وبيتي مفتوحًا له وقتما شاء. وأما عمتي فلا شك أنها تأمل ألا أنجب أطفالًا، حتى لا يتوثق زواجي بشهيرة، فهي وإن كانت لم تقاطعني إلا أنها في دخيلةِ نفسها لم ترضَ عن الزواج كل الرضا.

ولكن شهيرة لم تفكر أيضًا أن تنجب طفلًا، مع أنه من الطبيعي أن تظن أنها لو جاءت لي بابن أو ابنة لأَصبحَ زواجنا أكثر ثباتًا، وأصبحتْ هي أكثر اطمئنانًا.

– لماذا لا ننجب أطفالًا؟

– أيهمكَ هذا؟

– مجرد سؤال.

– ما كنتَ تسأله لو لم تكن مهتمًّا.

– أتظنين أنني أهتم بالأطفال؟

– ولهذا تعجبتُ من سؤالكِ.

– كنتُ أعتقد أنه يهمكِ أنت أن يكون لنا أطفال.

– يكفيني أنتَ.

– ألا نحاول؟

– إن شئتَ.

كنتُ خبيثًا في سؤالي الأخير هذا، فأنا لا يعنيني أن أنجب أطفالًا من شهيرة بالذات، ولكنني سألت هذا السؤال لأعرف مقدار اهتمامها هي، وقد أدركتُ فيما يشبه اليقين أنها حاولتْ مع زوجها الأول، وتبينتُ أنها لا تستطيع أن تعطي لزوجها أطفالًا.

وكان هذا الحديث هو آخر ما دار بيننا من حديثٍ في هذا الشأن.

الفصل الحادي عشر

ظن فتحي أن صداقتي به وجلوسي معه في جِلسته الشهرية يتيح له أن يأتي إليَّ. ما رأيكَ؟

– فيمَ؟

– أنتَ الآن غني.

– الحمد لله.

– والبحر يحب الزيادة.

– والله لا مانع.

– ما رأيك في المشروع القديم؟

– أي مشروع؟

– مكتب محاسبة.

– ماذا؟

– نفتحه معًا.

لماذا يظن الفقراء دائمًا أنهم أذكى من الأغنياء؟ ابن الكلب هذا يعلم أنني لست محاسبًا من الطراز الأول، ولكنه يريد أن يستغل ثروتي في أن أفتح مكتبًا أنفق عليه أنا، ويكسب منه هو. اعتذرتُ إليه، فإذا هو يقول في صفاقةٍ عجيبة: طيب هل لديك مانع أن تسلفني مبلغًا أفتح به مكتبًا، وأرده إليك بعد سنةٍ واحدة؟

ظهر على حقيقته، هذا هو الأصل في الطلب، اضطُر أن يصارح به لمَّا فشلتِ الحيلة الأولى. وإن لم يكن عندي ما أسلفه تزعل؟

– أبدًا.

– ونظل أصدقاء؟

– طبعًا.

– إذن فكأنك لم تطلب، وكأنني لم أعتذر.

لقد أصبحتُ ذا مرونةٍ واسعةٍ في رد الطالبين والطامعين، هؤلاء لا تكفيهم عيون من الأموال جاريةٌ، يريدون أن يناموا ونعمل نحن لهم هؤلاء السفلة.

* * *

كنتُ في المحل حين دق جرس التليفون. كيف حالكَ؟

– ما أخبارِكِ؟

– أنا في بيت أبي.

– ماذا؟

– أبي متعب جدًّا.

– ماذا به؟

– نوبة قلبية مفاجئة.

– هل أستطيع أن أصنع شيئًا؟

– ادع له.

– من أجل عينيك فقط، ولو أنه حرمني سعادةَ عمري.

– إنه أبي.

– ربنا يشفيه إن شاء الله.

– مع السلامة.

– مع السلامة.

ليست المسألة مجرد مرض أبيها، إن لهذا المرض عواقب بعيدةً رحت أفكر فيها، لقد كانت كلما حاولتِ التخلص من زوجها يرغمها أبوها أن تبقى، فلو أن أباها مات ما الذي سيبقي عليها مع زوجها؟

أيمكن أن يتحقق الأمل؟!

أما يزال أملًا؟!

بعد كل هذه السنوات الطوال ما زال هذا الأمل يداعبني، أَحُبٌّ هذا، أم تَمَسُّكٌ بأيام الطفولة الباكرة، أم إصرارٌ أن أحقق كل ما تاقت إليه نفسي؟

إن يكن حبًّا، أيبقى الحب طَوال هذه السنين؟ فأنا إذن وفيٌّ، وأنا أعرف في نفسي أنني لستُ وفيًّا، ولم أكن وفيًّا لأحد حتى أكون وفيًّا لهذا الحب، ولكن المؤكد أنني أريد أن أتزوج حميدة حتى وإن كانت قد تزوجتْ وطلقتْ.

لعله إصرار أن أُنفذ هذا الأمل الذي تاقت إليه نفسي، فأنا أحب أن أُنفذ كل ما تتوق إليه نفسي، وخاصةً هذه الأشياء التي منعنيَ الفقر أن أنفذها، وعلى رأسها زواجي من حميدة. لستُ أنسى شعوري يومذاك، وأنا مهزوم حسير تَنْصَبُّ عليَّ شفقة عمتي كأنها النار اللاهية، فأنا أكره أن يشفق عليَّ أحد، وأكره أن تنظر إليَّ عمتي وزوجها كأنني شيء صنعاه، ولا يطيق العيش بغير معونةٍ منهما.

ولهذا تزوجتُ من شهيرة؛ ليعرفا أنني أستطيع أن أعيش في مثل غناهما ودون حاجةٍ إليهما، ولقد كنتُ حريصًا دائمًا أن يشهدا مظاهر الغنى تحيط بي؛ فالسيارة مرسيدس، وحُلتي من أحسن قماش، والشيء الذي أحرص دائمًا أن يكون باذخ الأناقة

هو رباط عنقي، فقد كنتُ دائمًا أحسُد زوج عمتي على رباط عنقه. كما كنتُ أحسد وجدي على أناقته التي كانت تبدو عليه، وكأنها وُلدتْ معه. كان من ذلك النوع الذي يبدو أنيقًا في أي ملبسٍ يلبسه.

والعجيب أنني لم أصل إلى هذا السر أبدًا، فقد ألبس أفخر الملابس وأغلاها ثمنًا، وألتقي به، فإذا هو لا يلبس إلا الملابس العادية ولكنه دائمًا يبدو أكثر أناقةً مني، كأن الأناقة مَعلمٌ من معالم جسمه.

لو يعلم وجدي هذا كيف أثر في حياتي؟!

ما لي أذكره اليوم؟ لقد حرصتُ ألا أذكره لفترةٍ طويلةٍ، حتى خِلتُ أنني نسيته، فما له ينبت فجأةً في كِياني يلح عليَّ كمرضٍ قديمٍ عاودني بعد أن توهمتُ أنني تخلصتُ منه إلى الأبد؟

لقد نجح في كل شيءٍ سار فيه؛ كان أول دفعته في الزراعة، وعُيِّنَ معيدًا بالكلية، وهو اليوم يوشك أن يصبح أستاذًا، واشترى له أبوه قطعة أرضٍ يوم تخرَّج، فإذا هو يشرف عليها، وإذا هي مزرعة نموذجية يأتي إليها الناس من الداخل والخارج؛ ليشهدوا التقدم العلمي والعملي الذي حققه فيها.

وتزوج من أسرةٍ ثريةٍ، ترى أيحبها؟ المؤكد أنها لا تحبه. هل يستطيع أحد أن يحب شخصًا مثل وجدي؟ إنه دائمًا جاد، حتى حين يمزح تراه يمزح في ثقافة، ثقيل الظل، ولكنه ناجح، حقق كل ما أراده لنفسه أن يحقَّق، وما لَه لا يفعل؟ لقد كانت الظروف مواتيةً له دائمًا، تلقي بنفسها تحت أقدامه، لو حاول أن يفشل لما استطاع.

أين هو مني؟ تربى في بيت أبيه، ورُبِّيتُ في بيت غير بيت أبي، حتى وإن كان بيتًا أغنَى، ولكن شعوري بأنني في غير مكاني ... أكنتُ أشعر بهذا، أم أنا أختلق الأعذار؟ ولماذا أختلق الأعذار؟ إن كان وجدي ناجحًا، فأنا اليوم ناجح. قد يظن الناس غير ذلك عند المقارنة، ولكن ماذا يعنيني من رأي الناس؟ المهم ما أرى أنا.

أنا تمتعتُ بحياتي، أَتمتعَ وجدي بحياته؟ هل المذاكرة والنجاح والتقدم متعة، أم الحياة التي خضتُ أنا غمارها هي المتعة؟ أراهن أن وجدي لم يدخل إلى كباريه في حياته، أَعرفَ امرأةً مثل هناء؟ أيعرف وجدي كيف يتمتع بالمال؟ إنه حمار، حمار وإن قال الناس غير ذلك.

مستقرٌّ هو في زواجه، وأنا أعلم أن زواجي غير مستقر، بل إنني أعجب كيف استمر هذه السنوات، وما لَه لا يستمر؟ إيراد المحل أضعه في البنك، وشهيرة هي التي تنفق على البيت، وأنا مع هناء إن ضقتُ بشهيرة ذرعًا، ولكن الجهد الذي أبذله في الإبقاء على هذه الحياة كبير، لم أكن أحس به وأنا في الأيام الأولى من الزواج، ولكن الزمن لا يعفي أحدًا، وأنا اليوم أحس في كثيرٍ من الأحيان بنوعٍ من الوهن والخمول والكسل لم أكن أعهده في نفسي، ولقد أستعين عليه بهذه الجِلسة مع فتحي وصحبه، أو قد أستعين عليه ببعض دواء، أو بعض خمر، ولكنها أشياء إن أفادت لحظةً، فلن تفيد في اللحظة التالية. أنا أخاف من الزمن، وأخاف أن يدركني الكبر مبكرًا لكثرة ما أنفقتُ من الشباب، وشبابي هو رأس مالي، وإن كان المحل وإيراده يُلقيان إلى نفسي كثيرًا من الاطمئنان، إلا أن المحل لا يستطيع أن يسير وحده، إنه يحتاج إلى كثيرٍ من الجُهد، وأنا اليوم تعودتُ حياةً لا أستطيع أن أغيرها.

تُرى، لو طلقتُ شهيرة ماذا يحدث؟

قد تثور.

وماذا يهم؟

لقد وهبتُ لها أمتع سنوات حياتها، ولم أطالبها أن تنجب لي أطفالًا، وكل ما قدمته لي محل كانت قد فتحتْه لتسليَ نفسها بالعمل به، ومنذ تزوجتْني أصبحتْ سيدةً لا عمل لها إلا الاهتمام بما يجملها، وما يُبقي عليها رمقَ الشباب وأثارةً من مائه، وأصبحتْ تحرص على الحضور في المآدب، والذهاب إلى النادي في تشبثٍ مريرٍ بمظاهر الصغر. وأشهد قد ناضلتِ السنين حتى أجهدتِ السنين، ولكن للزمن غدره. إن أوهمَ

لحظةَ أنه انهزم، فما هي إلا أن يتجمع مرةً أخرى، ويُجَيِّشَ كلّ قواه ويهاجم، فإذا حِصن الشباب مَشيب، وإذا الفتى شيخ، والفتاة عجوز.

ترهلتْ شهيرة وتهدَّلتْ وجنتاها، ونضَب من عينها بريق السطوة الشامخة ليُخْلِفَ وراءه نظرةً حائرةً تطالعني بها كلما التقتْ منا العيون، وكأنها تسألني: أأظل معك يومًا آخر أم حان موعد الفراق؟

إذا كنتُ سأتزوج حميدة، فلا بد أن أهب نفسي فترةً أستجم فيها من شهيرة وهناء على السواء، إن هناء أصبحتْ لا تبعث في نفسي إلا الملل، ولم أعد محتاجًا إلى المال منها، ولولا أنها ما زالت أجمل من شهيرة، وأكثر شبابًا لتركتُها من زمنٍ طويل. إنني أعتقد أنني أصحبها كسلًا أن أبحث عن غيرها، فإذا كان مقدرًا لي أن أتزوج من حميدة؛ فلا حاجة لي بهناء. وعليَّ بعد ذلك أن أبذل جُهدي لإرضاء حميدة وحدها، فما عدتُ أستطيع أن أجمع إليها أحدًا.

فكرتُ ولم أطل التفكير، أنا لم أسافر إلى الخارج أبدًا، فما لي لا أسافر الآن؟ سافرتُ وطفتُ بإنجلترا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا، وتمتعتُ برحلتي في المشاهدة. لم أُعنَ بالمتاحف التي يقولون عنها، وإنما كانت متعتي جميعًا في ليالي هذه البلدان مكتفيًا بالمشاهدة دون المشاركة، وحين عدتُ لم يمرِ على عودتي يومان، حتى جاءني التليفون المرتقب من حميدة. لقد مات أبوها، وطُلِّقَتْ من زوجها.

لم يعد بيننا اليوم ما يمنع الزواج، كل ما هنالك أطلق شهيرة، وأنتظر شهور العدة.

مكثتُ بالقاهرة أسبوعًا، ثم أخبرتُ شهيرة أني مسافر إلى الإسكندرية، وزعمت أنني سأستلم بضاعةً من الجمرك. ومن هناك أرسلتُ إليها ورقة الطلاق، وكلمتُ وجدي في التليفون، وطلبتُ إليه أن يذهب إلى بيتي — أقصد بيت شهيرة — ويأخذَ كل أشيائي، ولم يحاول أن يعتذر، فهو يعلم أن ليس لي شخص آخر يستطيع أن يقوم بهذه المهمة، ولم يسألني أين يذهب بهذه الأشياء، فقد ظن أن من الطبيعي أن يذهب بها إلى بيت أبيه، ولكنني أخبرته أن يذهب بها إلى بيت أبي أنا، فهذا هو المكان الطبيعي

الذي كان يجب أن أكون فيه دائمًا، وإن كان الحال قد عاق أبي أن يعولني، فلا بأس أن أعول الآن أبي بمالي أنا.

* * *

تزوجتُ من حميدة، أخيرًا تزوجت من حميدة. أيام الزواج الأولى هي أجمل ما مر بي من أيام، لقد حققتُ كل ما أردت في الحياة، عشنا في بيت أبي بعد أن جددتُ كل شيءٍ فيه من أثاث وجدران، وحتى أبي جئت له بحجرة نومٍ جديدة.

قضيتُ وحميدة شهر العسل بالإسكندرية، فهي لم تشأ أن تقضيَه خارج مصر. وحين عدنا إلى البيت، وتناولتُ أول غذاء في بيت أبي مع حميدة وأبي، خُيِّل إليَّ أنني أصبحت ملكًا على الدنيا بأسرها.

وما لبثتِ الأيام الحلوة أن مرتْ سراعًا، وما لبثتْ همتي أن خمدتْ، فأكثرتُ من الذهاب إلى أصدقاء فتحي. وكم فرحتُ حين أخبرتْني حميدة أنها تحمل لي طفلًا، إذن فالحياة تفرش لي من السعادة ما حرمتْني منه السنين الطوال.

نهاية النهاية

أصدقاء فتحي والجوزة هم كل تسليتي في هذه الأيام، ولكن اليوم حدث شيء عجيب؛ لقد قالوا لي بدلًا من أن تدخِّن خذ قطعة من المخدر، واشرب عليها فنجان قهوة سادة.

وفعلتُ وأنا أكتب الآن، وأنا أحس كأن حياتي تطبق على صدري، حتى ما أحسب أنني مستطيع أن أكمل ما بدأتُ، ألا أرى ابني؟ أتذهب حياتي كلها نهبًا للحظة مجنونة، حسبتُ أنها ستمدني بالسعادة والهناء، ألهذا الحد تعبث بنا الحياة، فتضع لنا الموت في كأس الأمانيِّ؟! ألهذا الحد تخادعنا الحياة؟ ولكنني مع ذلك أحبها، وأريد أن أعيش، ولا أريد أن أموت. لا، لا، لا أريد أن أموت.

جدول المحتويات

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر